هذا الكتاب

صدرت هذه « القصة » على حلقات عدة في « الاتحاد » صحيفة الحزب الشيوعي في الاراضي المحتلة « منذ عام ١٩٤٨ » .

ثم عمد المؤلف ــ اميل حبيبي ــ وهو مناضل بارز في الحزب الشيوعي ، الى جمعها واصدارها عن دار «عربسك» للنشر في حيفا ، حيث لاقت اقبالا شديدا من الجماهير ، وتناقلتها الايدي عبر حدود الاحتلال ، وكانت قد صدرت للكاتب « سداسية الايام الستة » عام ١٩٦٩ .

وليست أهمية « المتشائل » انها صدرت فقط في الاراضي المحتلة ، انها ، في الاساس ، بكونها عملا ادبيا اصيلا ، ومجددا في الادب العربي الساخر ، والذي بواسطته عبر الكاتب عن الوجدان الوطني للشعب الفلسطيني ، الذي رافق كل مراحل القضية الفلسطينية .

الثمن ٤٠٠ ق.ل
او ما يعادلها

اميل حبيبي



الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل



اميل حبيبي
الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل

اميــل حبيبــي

الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد ابي النحس المتشائل

قصة

دار ابن خلدون للطباعة والنشر والتوزيع

ص. ب: ١١٩٣٠٨ — بيروت — لبنان

الهاتــف ٢٩٦١٠٣

الطبعة الثانيــة

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤

الطبعة الاولـــى

صيـــف ١٩٧٤

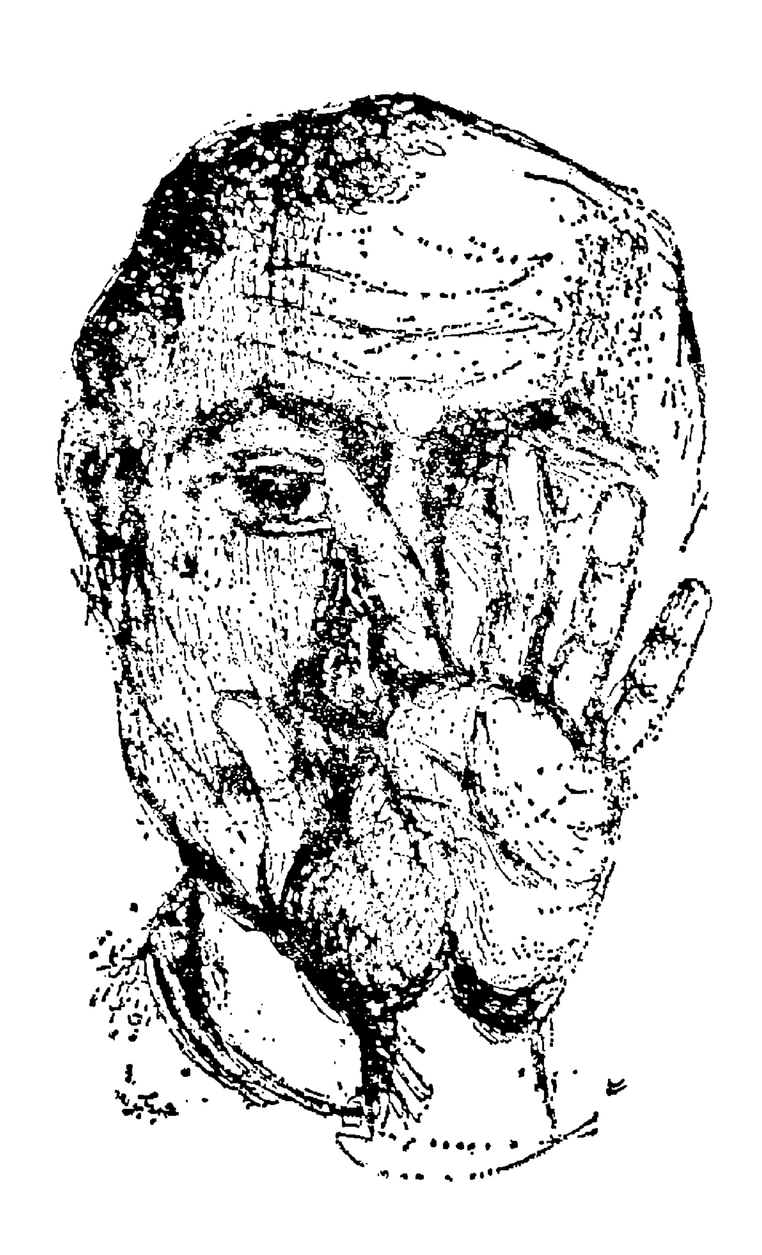
منشورات عربسك ــ مطبعة الاتحاد ــ حيفا

للمؤلف :

سداسيــة الايــام الستة

صدرت عــام ١٩٦٩

فهـــــرس



اللوحات الداخلية للفنان عبد عابدي

ــ مسك الختــام ــ

انتم ، ايها الرجال !

وانتن ، ايتها النساء !

انتم ، ايها الشيوخ والحاخاميون والكرادلة !

وانتن ، ايتها الممرضات وعاملات النسيج !

لقد انتظرتم طويــلا

ولم يقرع سعاة البريــد ابوابكم

حاملين اليكم الرسائل التي تشتهون

عبر الاسيجة اليابسة ..

انتم ، ايها الرجال !

وانتن ، ايتها النساء !

لا تنتظروا ، بعد ، لا تنتظروا !

اخلعوا ثياب نومكم

واكتبوا الى انفسكم

رسائلكم التي تشتهون ..

ــ سميح القاسم (قرآن الموت والياسمين)

الكتاب الاول

يعاد

صدرت ١٩٧٢

- ١ -

سعيد يدعى التقاء مخلوقات من الفضاء السحيق

كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال :

إبلغ عني اعجب ما وقع لانسان منذ عصا موسى وقيامة عيسى وانتخاب زوج* الليدي بيرد رئيسا على الولايات المتحدة الاميركية .

اما بعد ، فقد اختفيت . ولكنني لم امت . ما قتلت على حدود كما توهم ناس منكم ، وما انضممت الى فدائيين كما توجس عارفو فضلي ، ولا انا اتعفن منسيا في زنزانة كما تقول اصحابك .

صبرا ، صبرا ، ولا تتساءل : من هو سعيد ابو النحس المتشائل هذا ؟ لم ينبه في حياته فكيف ننبه له ؟ .

انني ادرك حظنى ، وانني لست زعيما فيحس بي الزعماء . ولكن ، يا محترم ، انا هو الندل* ! .

الم تضحك من الاضحوكة الاسرائيلية عن السبع الذي تسرب الى مكاتب اللجنة التنفيذية* ؟ ففي اليوم الاول افترس

---

* المقصود الرئيس جونسون
* الخادم الذي يقدم الطعام والشراب
* اللجنة التنفيذية للهستدروت .

مدير التنظيم النقابي ، فلم ينتبه زملاؤه .. وفي اليوم الثاني افترس مدير الدائرة العربية فلم يفتقده الباقون . فظل السبع يمرح مطمئنا ويفترس مريئا حتى اتى على ندل السفـــرة ، فأمسكوه .

انا الندل ، يا محترم ، فكيف لم تنتبهوا على اختفائي ؟

لا هم . فالاهم ان اختفائـــي جاء في امر عجب ترقبت وقوعه طول العمر . وقعت العجيبة يا معلم والتقيت مخلوقات هبطت علينا من الفضاء السحيق . واناذا موجود الان فـــي المعية . واناذا اكتب اليك بسري العجيب هذا وانا محلق فوق رؤوسكم .

اياك والريبة ، وقولك ان عصر العجائب قد ولـــى . فما دهاك ، يا معلمي ، حتى صرت تعكس الامور ؟

اما والذين انا في كنفهم فان عصرنا هذا لهو من اعجب العصور ، منذ عاد وثمود ، الا اننا الفنا هذه العجائب ، فلو قام اسلافنا واستمعوا الى الراديو ، وشاهدوا التلفزيون ، وراوا طائرة الجامبو وهي تهبط في ليل المطـــار الدامس ، تنش وتقصف ، لاشركونا .

ولكننا تعودنا . فلم نعد نجد في خلع الملوك خارقا ولا في بقائهم . فبروتس لم يعد امرا فذا تكتب الروايات عنه : حتى انت يا بروتس ! ولا تقول العرب : حتى انت يا بيبرس ! وذلك ان السلطان قطز* لم يخرج من فيه سوى حشرجـــة تركية . وما زال ابو زيد الهلالي يكب على الايدي تقبيلا ، فلا بتطير السلطان .

---

* ــ قطز السلطان المملوكي الذي وقعت في عهده وقعة عين جالوت ، بالقرب من الناصرة . وهي الوقعة الشهيرة التي اوقفت زحف هولاكو التتري. وكان بيبرس قائد هذه الوقعة تحت امرة قطز . فابلى بلاء حسنا . فتوقع ان يقطعه قطز مدينة حلب . ولكن قطز خيب امله . فتآمر بيبرس وزميل له على حياة قطز . فاكب زميله على يد السلطان يقبلها ، فاهوى بيبرس على عنق السلطان بالسيف فقتله وقعد مكانه . وذلك في سنة ١٢٦١ م .

لست قطزا — يقول الملك . ولا زماني زمان البيبرسة يقول : عبده .

والقمر اصبح اقرب علينا من تينتنا القمراء* في قريتنـــا الثكلى . وسلمتم بكل هذه العجائب ، فكيف تنكرون علـــي عجيبتي ؟ .

مهلا ، مهلا ولا تتعجل الشرح ، يا معلم . كل شـــيء في وقته يعسل . فاذهب بسلامتك ولا تماحكني في شكلهم ، وفي لباسهم ، وفي نظامهم ، وفي علومهم . اني اقهقـــــه في وجوهكم : لقد اصبحت اعلم ما لا تعلمون فكيف لا اتبغدد ؟

اما كيف اختاروني من دون خلق الله اجمعين ، فلست متيقنا انني الوحيد الذي التقاهم . وحـــين استنصحتهم في اطلاعك على ما وقع لي ، كي يعلم العالم ، تبسموا وقالوا لا بأس . ولكن العالم لن يعلم . وصاحبك لن يصدقك ، فليس كل ما يهبط من السماء وحيا . وهذه من عجائبكم !

قد لا اكون الوحيد الذي اختاروه . ولكنني ، وحقك، مختار من المخاتير . وانت ايضا ، يا معلم اصبحت مختارا . فأنـــا اخترتك لتروي عني اعجب عجيبة . فقط عجبا !

كيف اختاروني ؟ لانني اخترتهم . ظللت طول العمر ابحث عنهم ، وانتظرهم . واعوذ بهم ، حتى لا مندوحة .

عجيبة ؟ لا بأس . كان اسلافنا في الجاهلية يصنعون آلهتهم من التمر ، حتى اذا جاعوا اكلوها . فمن الجاهلي يا معلم ، أنا ام أكلة آلهتهم ؟

ستقول : لأن ياكل الناس آلهتهم خير من ان تأكلهم الآلهة .

فأرد عليك : ان آلهتهم كانت من التمر !

---

*التي يتأخر ايناع ثمرها .

– ٢ –

سعيد يعلن ان حياته في اسرائيل كانـــت فضلـــة حمار !

لنبدأ من البداية . كانت حياتي كلها عجيبة . والحياة العجيبة لا تنتهي الا بهـذه النهاية العجيبة . حـين سألت صاحبي الفضـائي : كيف آويتموني ؟ قال : هل لديك مـن بديل ؟

فمتى كانت البداية ؟

كانت البداية حين ولدت مرة اخرى بفضل حمار .

ففي الحوادث كمنوا لنا واطلقوا الرصاص علينا . فصرعوا والدي ، رحمة الله عليه . اما أنا فوقع بيني وبينهم حمـار سائب ، فجندلوه . فنفق عوضا عني . ان حيـاتي ، التي عشتها في اسرائيل بعد ، هي فضلة هذه الدابة المسكينـة . فكيف علينا ان نقوم حياتي يا استاذ ؟

غير انني اراني انسانا فذا . ألم تقرأ عن كلاب لعقت الماء المشبع بالسم ، فماتت ، لتنبه أسيادها ولتنقذ حياتهم ؟ وعن الخيول التي فرت بفرسانها الجرحى ، تعدو سوابـق ريح ، فأنفقها الاجهاد بعد ان بلغت بهم مضارب الامان ؟ أم

انا فاول انسان ، على ما اعهد ، انقذه حمار محرن لا يسابق ريحا ولا يبغم . فأنا انسان فذ . وقد يكون الفضائيون اختاروني على ذلك .

علمني ، بحياتك ، الانسان الفذ من يكون ؟ اهو الذي يختلف عن الآخرين ، أم هو الواحد من هؤلاء الآخرين ؟

قلت انك لم تحس بي أبدا . ذلك انك بليد الحس يا محترم . فكم من مرة التقيت اسمي في امهات الصحف ؟ ألم تقرأ عن المئات الذين حبستهم شرطة حيفا في ساحة الحناطير (باريس حاليا) يوم انفجار البطيخة ؟ كل عربي ساب في حيفا السفلى على الاثر حبسوه - من راجل ومن راكب . وذكرت الصحف اسماء الوجهاء الذين حبسوا سهوا ، وآخرين .

آخرون — هؤلاء انا . الصحف لا تسهو عني . فكيف تزعم أنك لم تسمع بي ؟ اني انسان فذ . فلا تستطيع صحيفة ذات اطلاع ، وذات مصادر ، وذات اعلانات ، وذات ذوات ، وذات قرون ، ان تهملني . ان معشري يملأون البيدر والدسكرة والمخمرة . انا الآخرون . انا فذ !

ـ ٣ ـ

سعيد ينتسب

ان اسمي ، وهو سعيد ابو النحس المتشائل ، يطابق رسمي مخلقا منطقيا . وعائلة المتشائل عائلة عريقة نجيبة في بلادنا . يرجع نسبها الى جارية قبرصية من حلب لم يجد تيمورلنك لرأسها مكانا في هرم الجماجم المحزوزة ، مع ان قاعدته كانت عشرين الف ذراع وعلوه كان عشر أذرع، فأرسلها مع احد قواده الى بغداد لتغتسل فتنتظر عودته. فاستغفلته. (ويقال ـ وهذا سر عائلي ـ ان ذلك كان السبب في المذبحة المشهورة) . وفرت مع اعرابي من عرب التويسات ، اسمه ابجر ، الذي قال فيه الشاعر :

يا أبجر بن أبجر يا انت
انت الذي طلقت عام جعت

فطلقها حين وجدها تخونه مع الرغيف بن ابي عمرة* ، من غور الجفتلك ، الذي طلقها في بير السبع . وظل جدودنا

* ابو عمرة كنية الجوع .

يطلقون جداتنا حتى حطت بنا الرحال في بسيط من الارض أفيح متصل بسيف البحر ، قيل انه عكاء ، فالى حيفاء على الشاطىء المقابل من البسيط . وبقينا مطلاقين حتى قامت الدولة .

وبعد النحس الاول ، في سنة ١٩٤٨ ، تبعثر اولاد عائلتنا ايدي عرب ، واستوطنوا جميع بلاد العرب التي لما يجر احتلالها . فلي ذوو قربى يعملون في بلاط آل رابع في ديوان الترجمة من الفارسية واليها . وواحد تخصص باشعال السجائر لعاهل آخر ، وكان منا نقيب في سوريا ، ومهيب في العراق ، وعماد في لبنان . الا انه مات بالسكتة يوم افلاس بنك انترا . واول عربي عينته حكومة اسرائيل رئيسا على لجنة تسويق العلت والخبيزة في الجليل الاعلى هو من أبناء عائلتنا ، على ان والدته ، كما يقال ، هي شركسية مطلقة . وما زال ، عبثا ، يطالب بالجليل الادنى . ووالدي ، رحمه الله ، كانت له أياد على الدولة قبل قيامها . وخدماته هذه يعرفها تفصيلا صديقه الصدوق ضابط البوليس المتقاعد ، الادون سفسارشك .

ولما استشهد والدي ، على قارعة الطريق ، وانقذني الحمار ، ركبنا البحر الى عكا . فلما وجدنا ان لا خطر علينا ، وان الناس لاهون بجلودهم ، نجونا بجلودنا الى لبنان حيث بعناها واسترزقنا .

فلما لم يعد لدينا ما نبيعه تذكرت ما اوصاني به والدي وهو يلفظ انفاسه على قارعة الطريق . قال : رح الى الخواجه سفسارشك ، وقل له : والدي ، قبل استشهاده ، سلم عليك ، وقال : دبرني !

فدبرني .

– ٤ –

سعيد يدخل اسرائيل لاول مرة

قطعت الحدود في سيارة دكتور من جيش الانقاذ كان يفازل اختي في عيادته في وادي الصليب في حيفا . فلما رحلنا الى صور وجدناه في استقبالنا . فلما بدأت ارتاب في الامر تحول الى اعز اصحابي . فاستذوقتني زوجه. فسألني هل تحفظ السر ؟ قلت : مثل نجم فوق عاشقين . قال : فأمسك لسانك انها فروط . فأمسكت .

فلما كشفت له عن رغبتي في التسلل الى اسرائيل تبرع بحملي في سيارته . وقال : افضل لك . قلت : ولك . فقال : على بركة الله . وباركتنا الوالدة .

بلغنا ترشيحا حين كانت الشمس والاهالي تهجرها . فاستوقفنا الحرس . فأظهر الدكتور بطاقته فحيونا ، وكنت مذعورا . فضحك الدكتور وشتمهم فشتموه وضحكوا .

وبتنا في معليا حتى استيقظت قبل الفجر على همس صادر عن سرير الدكتور الى جانبي . فحبست انفاسي . فتبينت صوتا يهمس ان زوجها لا يستيقظ الساعة . فقلت: لا يمكن ان تكون هذه اختي ، فأختي لا زوج لها حتى الآن . فنمت مطمئنا .

وتفدينا في بيت والدها في ابو سنــان ، وكانت في ذلــك الوقت ارضا حراما ، أي لا يطرقها سوى الجواسيس وتجار الغنم والحمير السائبة .

واكتروا لي دابة هبطت على ظهرهــا الى كفرياسيف .. وكان ذلك في صيف ١٩٤٨ . وعلى ظهر الجحش من ابو سنان الى كفرياسيف احتفلت بصيفي الرابع والعشرين .

وارشدوني الى مقر الحاكم العسكري . فدخلته راكبا على جحش بن اتان . وكانت على عتبته ثلاث درجات صعدتهــا الدابة في خيلاء .

فتدافع العسكر نحوي،مذهولين . فصحت : سفسارشك، سفسارشك ! فانطلق نحوي عسكري سمين . وصرخ : انــا الحاكم العسكري وانزل عن الحمار. قلت : انا فلان بن فلان، ولا انزل الا على عتبة الخواجــا سفسارشك . فشتمني ، فصحت انا طنيب على الخواجا سفسارشك . فشتم الخواجا سفسارشك . فنزلت عن الحمار .

- ٥ -

بحث في اصل المتشائل

لما نزلت عن الحمار رأيتني اطول قامة من الحاكم العسكري . فاطمأنت نفسي حين وجدتني اطول قامة منه بدون قوائم الحمار . فارتحت على مقعد من مقاعد المدرسة التي حولوها الى مقر الحاكم وحولوا الواحها الى طاولة بنغ بونغ .

شعرت بالاطمئنان وحمدته على انني اطول قامة من الحاكم العسكري بدون قوائم الحمار .

هذه هي شيمة عائلتنا . ولذلك سميت بعائلة المتشائل . فالمتشائل هي نحت كلمتين اختلطتا على جميع افراد عائلتنا منذ مطلقتنا القبرصية الاولى . وهاتان الكلمتان هما المتشائم والمتفائل . فدعينا بعائلة المتشائل . ويقال أن اول من اطلقها علينا هو تيمورلنك نفسه بعد مذبحة بغداد الثانية . وذلك لما وشوا بجدي الاكبر ، ابجر بن ابجر ، وانه ، وهو على متن فرسه خارج اسوار المدينة ، التفت فشاهد السنة اللهب ، فهتف : بعدي خراب بصرى !

خذني انا مثلا ، فانني لا اميز التشاؤم عن التفاؤل . فأسأل نفسي : من انا ، أمتشائم انا ام متفائل ؟

اقوم في الصباح من نومي فأحمده على انه لم يقبضني في المنام . فاذا اصابني مكروه في يومي احمده على ان الاكره منه لم يقع . فأيهما انا ، المتشائم ام المتفائل ؟

ووالدتي من عائلة المتشائل ايضا . وكان اخي البكر يعمل في ميناء حيفا . فهبت عاصفة اقتلعت الونش الذي كان يقوده والقته معه في البحر فوق الصخور ، فلموه واعادوه الينا اربا اربا ، لا رأس ولا احشاء . وكان عروسا ابن شهره. فقعدت عروسه تولول وتندب حظها . وقعدت والدتي تبكي معها صمتا . ثم اذا بوالدتي تستشيط وتضرب كفا بكف وتبح قائلة : « مليح ان صار هكذا وما صار غير شكل » ! فما ذهل احد سوى العروس ، ألتي لم تكن من العائلة فلا تعي الحكم . ففقدت رشدها ، واخذت تعول في وجه والدتي : أي غير شكل يا عجوز النحس (هذا اسم والدي ، رحمه الله) : اي شكل بعد هذا الشكل يمكن ان يكون اسوأ منه ؟

ولم يرق والدتي نزق الشباب . فأجابتها بهدوء ، وكأنها تقرأ في المندل : ان « تخطفي » في حياته يا بنية — اي ان تهربي مع رجل آخر . علما بأن والدتي تحفظ شجرة العائلة عن ظهر قلب .

والحقيقة انها هربت ، بعد سنتين ، مع رجل آخر . فكان عاقرا . فلما سمعت الوالدة انه عاقر ، رددت لازمتها : فلماذا لا نحمده ؟

فأيهم نحن ، المتشائمون ام المتفائلون ؟

ـ ٦ ـ

كيف شارك سعيد ، في حرب الاستقلال لاول مرة ،

ولنعد ، يا محترم ، الى مقر الحاكم العسكري الذي ، ما ان شتم الادون سفسارشك حتى نزلت عن الحمار . فسرعان ما تبين لي ان الشتم لا يدل على استهانة الشاتم بالمشتوم ، بل يدل ، احيانا ، على الغيرة .

فما ان قعدت على المقعد راضيا عن ان قامتي اطول من قامة الحاكم العسكري ، حتى بدون قوائم الدابة ، حتى هرع هذا الاخير ، اي الحاكم العسكري ، الى التلفون ورطن فيه ببعض كلام لم افهم منه سوى اسمين ارتبطا بي فيما بعد زمنا طويلا : أبي النحس وسفسارشك . ثم ألقاه وصاح في وجهي ان قم . فقمت .

قال : انا ابو اسحق فاتبعني . فتبعته الى سيارة جيب اوقفوها بقرب العتبة وحماري يتمخط الى جانبها . قال : لنركب . فاعتلى سيارته واعتليت جحشي . فزعق،فانتفضنا، فوقعت عن ظهر الحمار فوجدتني بقربه ، أي بقرب الحاكم

العسكري في السيارة التي توجهت بنا غربا في طريق ترابي بين اعواد السمسم . قلت : الى اين ؟ قال : عكا وانكتم . فانكتمت .

وما ان مرت بضع دقائق حتى أوقف الجيب فجاة . وانطلق منه كالسهم وقد اشرع مسدسه . ثم اخترق اعواد السمسم وكشفها ببطنه ، فاذا بامراة قروية مقرفصة ووليدها في حجرها وقد رأرأت عيناه .

فصاح : من اية قرية ؟

فظلت الام مقرفصة تطل عليه بنظرات شاخصة مع انه كان واقفا فوقها كالطود .

فصاح : من البروة ؟

فلم تجبه بعينيها الشاخصتين .

فصوب مسدسه نحو صدغ الولد ، وصاح : اجيبي او افرغه فيه .

فانكمشت تأهبا للانقضاض عليه ، وليكن ما يكون . ففي عروقي تجري دماء الشباب الحارة،انا ابن الرابعة والعشرين، وحتى الصخر لا يطيق هذا المنظر . غير اني تذكرت وصية ابي وبركة والدتي . فقلت في نفسي : سأثور عليه اذا ما اطلق الرصاص . ولكنه يهددها فحسب . فبقيت منكمشا .

واما المراة فقد اجابته هذه المرة : نعم من البروة .

فصرخ : اعائدة انت اليها ؟

فأجابته : نعم عائدة .

فصرخ : الم انذركم ان من يعود اليها يقتل ؟ الا تفهمـون النظام ؟ اتحسبونها فوضى . قومي اجري امامي عائدة الى أي مكان شرقا. واذا رأيتك مرة ثانية على هذا الدرب لن اوفرك.

فقامت المرأة وقبضت على يد ولدها وتوجهت شرقا دون ان تلتفت وراءها . وسار ولدها معها دون ان يلتفت وراءه .

وهنا لاحظت اولى الظواهر الخارقة التي توالت علي فيما بعد حتى التقيت ، اخيرا ، صحبي الفضائيين . فكلما ابتعدت المرأة وولدها عن مكاننا ، الحاكم على الارض وانا في الجيب ، أزدادا طولا حتى اختلطا بظليهما في الشمس الغاربة ، فصارا اطول من سهل عكا . فظل الحاكم واقفا ينتظر اختفاءهما ، وظللت انا قاعدا أنكمش ، حتى تساءل مذهولا : متى يغيبان ؟

الا ان هذا السؤال لم يكن موجها الي .

والبروة هذه هي قرية الشاعر* الذي قال ، بعد ١٥ سنة :

« أهنىء الجلاد منتصرا على عين كحيلة
مرحى لفاتح قرية ، مرحى لسفاح الطفولة »

فهل كان هو الولد ، وهل ظل يمشي شرقا بعد ان فك يده من قبضة امه وتركها في الظل ؟

لماذا اروي لك ، يا معلم ، هذه الحادثة التافهة ؟

لعدة اسباب منها : ظاهرة نمو الاجسام كلما ابتعدت عـن انظارنا .

---

* **محمود درويش**

ومنها انها برهان آخر على ان اسم عائلتناالعريقة هــو اسم له هيبته في قلوب رجالات الدولة . فلولا هذه الهيبــة لأفرغ الحاكم مسدسه في راسي،وقد شاهدني منكمشا تأهبا.

ومنها : اني شعرت ، لاول مرة ، انني اكمل رسالة والدي، رحمه الله ، واخدم الدولة ، بعد قيامها على الاقل . فلماذا لا أتبحبحُ مع الحاكم العسكري ؟

وتبحبحت فسألته : سيارتك هذه ، من اي موديل ؟

فقال : انكتم .

فانكتمت .

فشاعر المروة ، السالف الذكر ، قال :

« نحن ادرى بالشياطين التي
تجعل من طفل نبيــا »

ولم يدر ، الا اخيرا . بأن هذه الشياطين نفسها تجعل مــن طفل آخر نسيا منسيا .

ــ ٧ ــ

ورود ذكــر
يعاد لاول مــرة

استقبلتنا عكا ، حين دخلناها ، وقد التفت بعبــاءة الليل العباسية . فتذكرت صاحبتي «يعاد» ، التي لم تبتسم في القطار لسواي ، فتسارع وجيب الفؤاد .

ان عكا هي مدرستي الثانوية ويعاد هي حبي الاول .

فعكا ، التي صمدت للصليبيين اطول مما صمد غيرها مــن الحواضر ، وردت نابليون ، ولم يدخلها التتار ، حافظت على هيبتها بعد ان هرمت وشاخت واصبح سورهــا محششة ، ومنارها مثل قنديل جحا . . فظلت القصبة حتى بعــد ان تصنمت حيفا واستشببت . وظلت مدرستها الثانويــة ، في الغرف الكلينية على كتف السور الشرقي ، اعلى صفوفا من مدرسة حيفا الثانوية . فانتقلنا الى « مدرسة الفرقة »* في عكا ، ذهابا وايابا يوميا في القطار . وفي القطار التقينا صاحبتي

---

* **مدرسة الفرقة ــ هي مدرسة عكا الثانوية قبل قيام الدولة . سميت بهذا الاسم لانها كانت مركز الحامية التركية في عكا .**

« يعاد » الحيفاوية التي كانت مثلنا تتابط مزودتها ، وتتعلم في مدرسة البنات العكية ، وتعود معنا . الا انها كانت تنزوي في المقصورة الوحيدة في القطار ، تدخلها وقد اسدلت ايهابها ، وتخرج منها على هذه الحـال . فسارقتني النظر بعينيهـا الخضراوين من باب المقصورة المشقوق ، فعلقتها . فنادتني ذات صباح ان افسر لها كلمة بالانجليزية . فلما عجزت عنهـا فسرتها لي وقالت : اقعد . فصرت اقعد معها في الذهاب وفي العودة . فاحببتها حبا جما . فقالت انها احبتني لانني خفيف الظل وضحكتي عالية .

ولكن غيرة زميل من زملائي جعلتني ابكي بدون صوت .

فقد وشى بي الى مدير مدرستها . الذي احال كتابه الى مدير مدرستنا ، فاستدعى جميع طلاب حيفا القطاريـين . وهاج وماج ثم قال : حيفا عكا بحر ، بينهما بحر . ما يجوز في حيفا لا يجوز في عكا . هذه مدينة محافظة منذ ايام صلاح الدين .

فتذكرت المغفور لـه الرحالة ابا الحسن محمد بن احمد ابن جبير الكناني ، الاندلسي ، الشاطبي ، البلنسي ، الذي بات ليلتين في خان عكاوي ، في زمن صلاح الدين ، فكتب عنها انهـا « تستعر كفرا وطغيانا » ، وانها «مملوءة كلها رجسا وعذرة». وكان جدي لأبي ، رحمهما الله ، الذي « خطفت » امراتـه الاولى ، يعلمنا منذ الصغر قائلا : فعلت ذلك لانها من عكاء . وكان يمطها توكيدا .

فتنطحت المدير وصحت في وجهه همسا : ولكنها ليست من عكاء !

فطردنا من مكتبـه ، وكتب الى اهلهـا . فأرسلوا مـن

ضربني في المحطة . فازددت هياما بها . فضربت زميلي الذي وشى بنا . فوقعنا من القطار على رمل الشاطىء فلم نتـاذ . وعدنا الى حيفا مشيا على الاقدام بعد ان اغتسلنا في البحر . واطعمنا الفوارنة خبز صاج بالزيت وبالملح وسرقوا المزودتين .. فرجعنا أعز الصحاب حتى يومنا هذا .

واما يعاد ، التي لم تعد الى القطار منذ كتاب المدير الـى اهلها ، فلم اعثر لها على اثـر . ولكن قلبي ظل مجروحـا بحبها .

فلما دخلنا عمارة الشرطة ، على الشاطىء الغربي، وسلمني الحاكم الى احد ضباطها ، امرني : عد في الصباح لانقلك الى حيفا . ثم استدرك : فأين ستقضي ليلتك هنا ؟ قلت : يعاد ! فصاح الضابط هل انت اطرش؟ وأعاد على مسامعي تعليماته . قلت : لا اعرف احدا هنا سوى مدير المدرسة ، فلان الفلاني .

فتشاوروا ثم قال الحاكم للضابط : احمله الى جامع الجزار . فحملني بجيبه . حتى اذا وصلنا الى سبيل الطاسات اوقف سيارته فترجلنا وقرع باب المسجد بمطرقة الباب التاريخية . فسمعنا لفطا ثم انحبس .. ثم سمعنا بكاء طفـل ثم انكتم ، فوقع اقدام تتجرجر . ثم انفتح الباب عن شيخ هم ، نحيل ، في ثوب هدم ، وهو يؤهل . فأمر الضابط : هذا واحد آخر عليه ان يثبت وجوده في المركز صباحا . فقال الشيخ : ادخل يا ابني . فدخلت . فلما امعنت النظر في وجهه عرفت فيـه مدير المدرسة . فهتفت : آه يا معلمي ، أن والدي رحمه الله ، قد اوصاك بي خيرا . فقال : ان خيري كثير يا ولدي ، ادخل فتره !!

— ٨ —

جلسة ليلية عجيبة في فناء جامع الجــزار

صفق معلمي براحتيه ثلاثا ، ثم قال مخاطبا الظلام في فناء المسجد : عودوا الى شؤونكم يا قوم فهذا واحد منا .

فاذا باللغط المحبوس ينفلت . وتنثال الاكف عــن افواه الاطفال المكتمة . وارى اشباحا تتقدم نحونا من غرف المدرسة الاحمدية التي تحيط بالفناء الرحب مــن اطرافه الثلاثــة ، الشرقي والشمالي والغربي ، فتتحلقنا ، وتقرفص بعــد ان تطرح السلام ، فعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فتستفهم عني .

قلت اني عائد من لبنان .

فاذا بهرج وبمرج .

فصاح معلمي: هذا ولدنا يا جماعة . فاذا عاد عاد الآخرون .

فسأل سائل : هل عدت متسللا ؟

فلم اشأ ان احدثهم عن الدكتور عشيق اختي ، ولا عــن

الدابة ، ولا عن الادون سفسارشك . فقلت : نعم .

ــ فسيطردونك الليلة .

قلت : ان لوالدي ، الذي اعطاكم عمره ، صديقا من كبارهم ، اسمه الادون سفسارشك .

فعاد الصخب . وعاد معلمي يطمئنهم : ان هو الا صبي لم يبلغ الحلم . مع ان الليلة هي ليلة ميلادي الرابع والعشرين . وكنت في حلم حقا .

وشكرت معلمي على انه لم يدع انني صبية كي ينقذني من غضبهم ، الذي لم ادرك له سببا .

حتى انسوا بي ، فأمطروني بالاسئلة عن شظايا اهلهم الذين التجأوا الى لبنان .

ــ نحن من الكويكات ، التي هدموها وشردوا اهلها ، فهل التقيت احدا من الكويكات ؟

فاعجبني ترديد الكاف في الكويكات . فعاجلت ضحكتي قبل ان تنطلق ، لولا صوت امرأة جاء من وراء المزولة غربا :

ــ البنت ليست نائمة يا شكرية ، البنت ميتة يا شكرية .

ثم تناهت الينا صرخة مخنوقة ، فاختنقت انفاس الجمع حتى انحبست الصرخة . فعادوا الى استجوابي . فقلت : لا

ــ انا من المنشية . لم يبق فيها حجر على حجر ، سوى القبور . فهل تعرف احدا من المنشية .

ــ لا .

ــ نحن هنا من عمقا ، ولقد حرثوها ، ودلقوا زيتها . فهل عرف احدا من عمقا ؟
ــ لا .

ـ نحن هنا من البروة . لقد طردونا وهدموها ، هل تعرف احدا من البروة ؟

ـ أعرف امراة كانت مختبئة مع طفلها بين اعواد السمسم .

فسمعت اصواتا كثيرة تحدس أيهن تكون هـذه المرأة ، فعدوا اكثر من عشرين ام فلان حتى صاح كهل من بينهم : كفوا ! انها ام البروة ، فحسبها وحسبنا . فكفوا .

ثم عادت الاصوات تنتسب في عناد ، مع ان قراها ، كما فهمت ، قد درستها العسكر :

ـ نحن من الرويس
ـ نحن من الحدثة
ـ نحن من الدامون
ـ نحن من المزرعة
ـ نحن من شعب
ـ نحن من ميعـار
ـ نحن من وعرة السريس
ـ نحن من الزيب
ـ نحن من البصة
ـ نحن من الكابري
ـ نحن من اقرت .

ولا تنتظر مني يا محترم ، بعد هذا الوقت الطويل ان اتذكر جميع القرى الدارسة ، التي انتسبت اليهـا الاشباح في باحة جامع الجزار ، هذا مع العلم بأننا نحن ، اولاد حيفـا ، كنـا نعرف عن قرى سكوتلندة اكثر مما كنا نعرف عن قرى الجليل . فأكثر هذه القرى لم اسمع به الا تلك الليلة .

لا تلمني ، يا محترم ، بل لم اصحابك . الم يكتب شاعركم لجليلي* :

« سأحفر رقم كل قسيمة
من ارضنا سلبت
وموقع قريتي ، وحدودها
وبيوت أهليها التي نسفت
واشجاري التي اقتلعت
وكل زهيرة برية سحقت
لكي اذكر
سأبقى دائما احفر
جميع فصول مأساتي
وكل مراحل النكبة
من الحبـــة
الى القبـــة
على زيتونـــة
في ساحة الدار » ؟

فالى م يظل يحفر وتظل سنو النسيان تعبر وتمحو ؟ ومتى سيقرأ لنا المكتوب على الزيتونة ؟ وهل بقيت زيتونة في ساحة الدار ؟

فلما لم يتلقوا مني أجوبة شافية ، وادركوا انني لا اعرف من عباد الله سوى أهلي والادون سفسارشك انفضوا مـــن حولي وعادوا الى زواياهم . فبقيت مع معلمي .

---

* توفيق زياد .

- ٩ -

الاشارة الاولـــى من الفضاء السحيق

فلمـــا انفض السامر ، وبقيت وحدي مع معلمي ، الذي انقذني من غضب الاشباح ، شعرت بالامتنان ، وبرغبتي في التعبير عنه . كان معلمي هذا ، كما تذكر يا محترم ، هـو السبب في انقطاع صلتي بيعاد ، ذات العينين الخضراوين . ولكن قلبي كبير . فقلت له انني مسرور بأن ابيت في كنفـه ليلتي الاولى في هذه الدولة الجديـدة . فهو ، بعـد الادون سفسارشك ، وصية ابي . فماذا تفعل هنا يا معلمي ؟

قال: اجمع الشمل .

ثم قال : والحقيقة ، يا ولدي ، انهم ليسوا اسوأ من غيرهم في التاريخ .

فهززت رأسي استحسانا .

فقال : حقا انهم هدموا القرى التي ذكرها القوم ، وشردوا اهلها . ولكن ، يا ولدي ، ان في قلوبهم لرأفة لم يحظ بهـا اجدادنا من الغزاة الذين سبقوهم .

خذ لك عكا هذه مثلا . فحين افتتحها الصليبيون في سنة ١١٠٤ ، بعد حصار دام ثلاثة اسابيع ، ذبحوا اهلها ونهبوا اموالهم .

وبقيت في ايديهم ٨٣ عاما حتى حررها صلاح الدين بعد وقعة حطين التي علمتكم عنها في المدرسة .

ثم عاد الصليبيون فحاصروا عكا مدة سنتين كاملتين ، من آب ١١٨٩ حتى تموز ١١٩١ ، فأكره الجوع اهلها على الاستسلام بشروط قاسية . فلما لم يستطيعوا ايفاءها امر ملكهم ريتشارد ليون هارت (يعني قلب الاسد) بذبح ٢٦٠٠ راس من رؤوس الرهائن الآدمية . وظلت عكا في ايديهم قرنا كاملا ، مئة عام من الزمن يا بني ، حتى حررها القائد المملوكي قلاوون ، سنة ١٢٩١ . وكان لقبه العسكري هو « الالفي » ، تقديرا للثمن الباهظ الذي دفع فيه ، وهو الف دينار .

فأردت ان اثبت له انني لا ازال من طلابه النجباء فسألته :

ــ فهل رتبة « الالوف » من جنرالاتهم الآن ، يا معلمي ، منحوتة من هذا المعنى ؟

ــ حاشا وكلا يا بني . بل تعود الى قائد الالف في التوراة . هؤلاء ليسوا مماليك ، وليسوا صليبيين ، بل عائدون الى وطنهم بعد غيبة الفي سنة .

ــ ما اقوى ذاكرتهم !

ــ على كل حال ، يا بني ، ظل الحديث يجري ، منذ ألفي سنة ، على الالوف : قادة ألفيون،او الوفيون،وقتلى بالالوف . ليس هناك على الارض اقدس من دم الانسان ، يا بني ، ولذلك سميت بلادنا بالمقدسة .

ــ ومدينتي حيفا ، ايضا ، مقدسة ؟

ــ كل مكان في بلادنا قد تقدس بدماء المذبوحين ويظل

يتقدس يا بني . ومدينتك حيفا لا تختلف عن بقية مدننا المقدسة . فبعد ان اكتسح الصليبيون مدينة القدس المقدسة، عليها السلام ، في سنة ١٠٩٩ ، وكتب ملكهم جوتفريد في رسالته الى البابا متباهيا بأن « اكوام الرؤوس والايدي والارجل كانت ترى في ساحات المدينة وطرقاتها » ، وبأنه في مسجد عمر ، رضي الله عنه ، حيث التجأ المسلمون « وصلت الدماء الى ركب الخيل » ، ذهبوا وافتتحوا حيفا بعد ان حاصرها اسطول البندقية شهرا . فذبحوا اهليها عن بكرة ابيهم ، رجالا ونساء واولادا .

فحيفا ليست مدينة جديدة يا بني ، ألا انه بعد كل مذبحة، لم يبق فيها من يخبر الذرية بأصلها .

ـ فلماذا لم تعلمونا عن هذه القدسية يا معلمي ؟

ـ من حق الانجليز ان يتباهوا بتاريخهم ، يا ولدي . وخصوصا بملكهم العظيم ليون هارت . وبدون ان نعلمكم هذه الامور شاركوا هم ايضا ، بدمائنا ، في عملية تقديس بلادنا . والتاريخ يا بني ، لا يصح في عيون الفزاة الا بتزوير التاريخ .

ـ فهل سيسمحون لنا ، يا معلمي ، بدراسة هذا التاريخ بعد ان جلا الفزاة ونالت البلاد استقلالها ؟

ـ انتظر فتر .

ـ وهل يدخلون جامع الجزار كما دخل الصليبيون مسجد عمر ؟

ـ حاشا وكلا يا بني ، بل يقرعون الباب فنخرج نحن اليهم . انهم لا يدنسون حرمة دور العبادة ، بل ان لهم في خارجها ، متسعا لهذا الامر .

وما ان اكمل معلمي كلامه المطمئن هذا ، حتى سمعنا قرعا شديدا على الباب . فقال معلمي : لقد جاءوا .

فقلت : ربما جاء الادون سفسارشك من خيفا ليستفسر

عن حالي .
ولكن معلمي كان قد بلغ البـــاب . وكانت الاشباح قـــد استيقظت ، واخذت تحوم في فناء الجامع على غير هدى .
وحبسنا انفاسنا ونحن نستمع الى الامر بأن الجيش قرر ان يعيد اللاجئين ، الملتجئين في كنف المسجد ، الى قراهـــم الاصلية حالا .
فهمس شبح الى جانبي : فلماذا لا ينتظرون حتى الصباح؟
فأدهشني هذا السؤال وقلت : خير البر عاجله .
فصاح الامر : سعيد ابو النحس يبقى وحده مع المعلم ، وجميع الآخرين ليخرجوا !
فتحققت كلام معلمي انهم ليسوا اسوأ مـــن الملك ليـــون هارت .
وانسلت شكرية ، التي ماتت ابنتها ، من الباب الشرقـــي وهي تحمل طفلتها على يديها . وقبل ان تغيب في الســـوق العتم سألتها : الى اين ؟ قالت : في الصباح ادفنها في عكـــا واتوكل .
وانسل آخرون من الباب الجنوبي ليضيعوا في ازقة عكا القديمة. فسألت : لماذا ؟ فقالوا: ما عندنا ادون سفسارشك، والذي هدم قرانا لا يعيدنا اليها .
واما الباقون فحملوا خرقهم ، واولادهم ، وخرجوا مـــن الباب الشمالي الكبير حيث حملوا في سيارات ضخمة حملتهم، كما اخبرني معلمي فيما بعد ، الى الحدود، حيث القتهم شمالا، وتوكلت .
فعاد معلمي واتكأ حيث كنت متكئا على المزولة وقد زاولني القلق . وقال قم الآن ونم ، لقد فرغت الليلة جعبتي .
ولكنني لم انم .
ففي تلك الليلة ، في ساعة الفجر الكاذب ، شاهدت الاشارة الاولى من الفضاء السحيق .

- ١٠ -

سعيد يفشي بسر عجيب من اسرار العائلة

ارقت لا لانني كنت مضطربا ، بل لانني كنت مبهورا بطالعي الحسن . فها انا اعود الى ارض الوطن متسللا ، فلا ينالني سوء ، مع ان شعبي كله يهيم على وجهه مشردا ، فاذا لم يهم ، هيموه .

الا انا . اتسلل في سيارة الدكتور عشيق اختي ، فيبقى عفاف اختي مصونا بفضل زوجة مضيفنا في معليا ، فأنتقل من السيارة الى الدابة ، ومن الدابة الى الجيب . وفي الطريق الى عكا انجو من الموت الاكيد بفضل انكماشي الذي جاء في وقته . فألتجىء الى جامع الجزار في كنف معلمي الذي عفوت عنه ، فيأتي العسكر ويقذفون بالاشباح ، وبأطفال الاشباح ، الى ما وراء الخطوط ، سوى سعيد أبي النحس المتشائل ، فكيف لا اشعر بأن هذه الليلة هي ليلة سعدي ؟

لا يمكن ان يكون الادون سفسارشك هو سبب كل هذا السعد . هل هو خاتم شبيك لبيك ؟ او هو قنديل علاء الدين ؟ ان في الامر لسرا خارجا عن قدرة البشر .

فقررت ان اخرج لاكشفه . وقبل ان اخرج . عفوا يا استاذ . بل قبل ان اروي لك ما جرى لي بعد خروجي ، من الضروري ان اعرفك بخصلة اصيلة اخرى من خصال عائلتنا العريقة ، بالاضافة الى التشاؤل والى اننا مطلاقون .

كان والدي ، حين استشهد ، يستشف الارض تحته. فلم يكشف الكمين الذي كمن له وأودى بحياته . ووالده ، من قبله ، شج راسه بحجر الطاحون لانه كان ينظر في الارض بين قدميه ، فلم يقم بعدها .

فهذه هي شيمة عائلتنا النجيبة ، ان نظل نبحث تحت اقدامنا عن مال سقط سهوا من صرة عابر سبيل لعلنا نهتدي الى كنز يبدل حالنا الرتيبة تبديلا .

وثق ، يا محترم ، بأنه ما من عجوز ، في طول بلاد العرب وعرضها ، يسبق رأسها بقية جسمها الى القبر،وتدب مقوسة مثل رقم ٨ ، الا ولها صلة قربى بنا . وما من شاب ينصب الفخاخ لالتقاط نشرات الاخبار الاذاعية ، لا يبقي محطة ولا يذر ، مثل صياد السمك الذي يلقي بصنانيره لعل السمكة الذهبية تعلق باحداها ، الا ويكون ابن عم او ابن خال .

ولكن ، يجب الا تفهم من هذا الكلام ان جدودنا لم ينتهوا الا برؤوس مهشمة . بل لقينا اموالا ضائعة كثيرة ، جيلا بعد جيل ، فلم تبدل شيئا من حياتنا الرتيبة .

ومن اسرار العائلة انه في زمن خروج الاتراك ودخول الانجليز ، خرج عمي لجدي من بيته في القرية الفلانية ــ نحن ، مثل الماسون ، لا يمكن ان نفشي اسرارنا العائلية ــ وكان ينظر الى اسفل كعادتنا . فاصطدم راسه بحجر في بيت خراب . وكانت جمجمته صلبة. فتدحرج الحجر من مكانه. فانكشفت

امامه هوة تفضنت في سفحها درجات هبط عليها ، فاذا بظلام خفاش . فقدح زناد فكره ، فقدح زناده ، فاستضاء . فرأى لحودا رخامية اخذ يفتحها فاذا فيها جماجم وبقية عظـــام ، وغاليات ذهبية دسها في دكة سرواله ، حتى فتح لحدا اكبر من الآخرين ، فاذا فيه ، مع الجمجمة التي كانت ، كما قيل ، اصفر حجما من بقية الجماجم ، تمثال من الذهب الخالص للخان مانجو ، اكبر اخوة هولاكو ، الذي صرعته الدوزنطاريا وهو يغزو الصين . فنقل جثمانه الضخم الى عاصمة ملكه على حمارين . ولم يكونوا قد بلغوا في ذلك ألوقت ما بلغناه من علم فلم يهتدوا الى فرق الكشافـــة . ولم تكن لديهـــم مدارس يصفون اولادها على الجانبـــين ، كما فعلوا بنا في حيفـــا في الثلاثينات ، حين صفونا على جانبي شارع الناصرة امام عامود فيصل حاليا * ، لنشيع جثمان الملك فيصل الاول ، الذي مات في سويسرة بفير الدوزنطاريا .

ولذلك قرروا ان يقتلوا كل من تلقاه الجنازة في طريقها ، احتراما لذكرى خان الاول ، كما قتلنا في الثلاثينيات ثلاثة ايام دراسة احتراما للملك الاول . فازهقوا في طريق هذه الجنازة، بحسب ما سجله المؤرخون ، عشرين الف روح وروحا واحدة ، هي روح عمي لجدي الذي لفظ انفاسه الاخيرة وهو متشبث بصنم الخان مانجو بعد سبعة قرون .

تبين عمي لجدي ، وهو في القا ع، انه اخيرا لقى الكنز الذي ظلت العائلة تبحث عنه عبر الاجيـــال ، فدهمته الفرحـــة ، فأضاع فتيله ، فلم يجد الباب . فأخذ ينادي على زوجـــه مقدرا ان بيته ، الذي بجوار الخربة ، هو الآن فوقه . وروى

---

* نقل العامود ، مؤخرا ، بضعة امتار بالقرب من مقابر آل مراد الى يسار محطة سكة حديد حيفا الشرقية .

لها كل ما اسلفت ذكره . فسمعت صوته قادما من الاعماق . الا انه استحلفها بقبر والديها الا تخبر احدا ، حتى اخاه . بل ان تنزل اليه من فتحة الهوة في حائط الخربة المهجورة . فخرجت . فلم تجد اي بيت مهجور في القرية . فعادت الى البيت والصقت جبينها بالارض ونادت عليه . فشتمها على نزقها ، وامرها بالتزام الصمت حتى الصباح. فالصباح رباح. وسيجد طريقه لوحده .

فلما لم يعد ، اخبرت اهله بالامر . فقاموا يفتشون ، فلم يجدوا اية خربة . ولم يشاؤوا ان يبلغوا الحكومة حتى لا تضع يدها على الكنز فيضيع الكنز عليهم . وظلوا يبحثون عنه وعن صنم مانجو حتى قامت الدولة . اما زوجه فلم تمت الا بعد ان وجدت غيره ، ولم يكن عاقرا .

واما انا فقررت الا اموت مقوس الظهر كأسلافي . ومنذ نعومة اظفاري اقلعت عن البحث بين قدمي عن كنز للخلاص. بل رحت ابحث عنه فيما فوق ، في هذا الفضاء الذي لا نهاية له ، في هذا « البحر بلا ساحل » كما وصفه محيي الدين بن عربي .

فقد قيض لنا ، ونحن في المدرسة الابتدائية، استاذ مغضوب عليه مولع بعلم الفلك ، حكى لنا حكايات العباس بن فرناس وجول فيرن ، وتعصب للفلكيين العرب القدماء ، من ابن رشد، الذي كان اول من درس بقع الشمس حتى البتاني الحراني الذي كان اول من استنتج ان معادلة الزمن تتغير تغيرا بطيئا مع مر الاجيال ، واول من توصل بكثير من الدقة الى تصحيح طول السنة الشمسية . فاذا كانت مدتها الحقيقية ، اعلن المغضوب عليه ، هي ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٨ دقيقة و ٤٦ ثانية ، فان البتاني حددها بـ ٣٦٥ يوما و ٥ ساعات و ٤٦ دقيقة و ٣٢ ثانية ، اي بفارق دقيقتين واربع ثوان . فقد كان

العرب ، حين يفكرون ــ قال المغضوب عليه ــ اسرع حركــة حتى من دوران الارض حول شمسها ، فاصبحوا الآن يتخلون من ملكة التفكير لغيرهم .

وكان المغضوب عليه يبقينا في الصف بعد الدوام ، ويغلــق النوافذ ، ثم يحكي لنا متباه[illegible] ابي الريحان محمد بن احمد البيروني ، الذي استنبط كروية الارض وان جميع الاجسام تنجذب نحوها قبل نيوتن بثمانمئة عام،وخصوصا عن الحسن ابن الحسن بن الهيثم الذي كان ، وهنا يخفت صوت المغضوب عليه فيصبح همسا ثوريا ، اول عالم انتهج الاسلوب العلمي المادي الحديث بضرورة الاعتماد على الواقع الموجود والاخذ بالاستقراء وبالمقارنة . فقد كان العرب حين يفكرون ــ قال الاستاذ المغضوب عليه ــ يعملون ثم يحلمون ، لا كما يفعلون الآن . يحلمون ثم يظلون يحلمون .

ومنذ ذلك الحين وانا احلم بأن يذكرني التاريخ حين يذكر فلكيينا الاقدمين . وبقيت احلم على هذا المنوال حتى جندلوا والدي ، رحمه الله ، وقامت دولة اسرائيل .

وكان استاذنا المغضوب عليه يؤكد لنا ان العرب هم اول من استعمل الصفر للغاية نفسها التي نستعمله لها الآن ، ثم قسم الواحد على صفر فأثبت لنا ان هذا الفضاء لا نهاية له ، والكون فيه :

يسبح في بحر بلا ســاحل
في حندس الغيب وظلمائه* .

فلا بد ان تكون فيه عوالم مثل عالمنا ، وارقى منا ، فلا بد

---

* لابن عربي .

ان يأتو الينا قبل ان نذهب اليهم .

لقد خرج الاتراك واتى الينا الانجليز، فلم يتزحزح استاذنا المغضوب عليه عن نظريته هذه . فكيف اتزحزح عنها ، انا الشاب وعمري كله امامي ، بعد ان خرج الانجليز وأتتنا اسرائيل ؟

منذ ذلك الوقت وانا انظر الى اعلى وانتظر مجيئهم ، فاما ان يبدلوا حياتي الرتيبة المملة تبديلا ، او ان يأخذوني معهم .

وهل هناك من بديل ؟

لذلك خرجت من فناء جامع الجزار ، في ساعة الفجر الكاذب،ورحت اجوب طرقات عكا المظلمة وانا اتطلع الى فوق.

— ١١ —

كيف لم يمت سعيد شهيداً في واد على الحـــدود اللبنانيــة

فلمــا كنت مطمئنا على قدري ، ومتحققا ان الاسوأ لن يصيبني ، هبطت الهوينـــا درجات الباب الشمالي ، فملأت طاسة ماء من سبيل الطاسات ، فارتويت وترحمت على احمد الجزار . ثم سرت في سبيلي .

فاذا امامي الطريق العريض حيث المسار شمالا ، الى راس الناقورة ، فلبنان . فخفضت راسي خجلا من غزالة . وتحولت عنـــه .

كنا ثلاثة شبان زملاء صف واحد. فقررنا في نهاية الاضراب الكبير (١٩٣٩) أن نعبر الحدود الى لبنان فنزور دار القيادة في بيروت نطلب سلاحا .

فركبنا سيارة الاجرة حتى قبيـــل راس الناقورة . ثـــم انحرفنا يمينا سيرا على الاقدام بين كروم العنب . فهبطنـــا واديا عميقا ، فأظلمت السماء . فلما اخذنا نصعد على كتفه

المقابل ، انهكنا التعب والهبنا العطش . فاستحثني الآخران ، فبكيت . فخلفاني وراءهما بعدما خيراني بين الاستمرار في الصعود او ان اموت شهيدا . فاخترت الامر الاول . ولم الحق بهما الا بعد ان كانا قد ارتويا من قطوف الدوالي الدانية . فرحت اروي غليلي ، فلم ينتظراني .

واذا بفتاة في مثل عمري ، تنادي والدها : هذا شاب مجاهد من فلسطين فيجيبها الفلاح من بعيد : اسقيه واطعميه . فنتجاذب اطراف الحديث . فأقع في حبها . فتقول ان اسمها غزالة ، وانني غزالها . فقد كنت خلب بنات .

فأعدها بأن اعود اليها بعد اسبوع، ومعي السلاح والذخيرة، فالتقيها تحت هذه الدالية .

فقالت انها ستخبر والدها بالامر ، فلن يمانع بأن يخطبها شاب حلو من فلسطين .

فانحني عليها كي اقبلها . فتنفر غزالة ضاحكة وهي تقول : عد اولا من بيروت . فلا اتبين سبب صدها . ولكنني اسرع كي الحق برفيقي .

فأراهما امامي على طريق الاسفلت تحيط بهما جماعة من شرطة الحدود اللبنانية . فقلت في نفسي : مليح انني تأخرت عنهما وانني علقت غزالة .

فرايت رجال الشرطة وهم ينحرفون بهما عن طريق الاسفلت ، يسارا ، وينزلون بهما الى معسكر على الشاطىء ، فيغيبون فيه .

فسرت في الطريق نفسها مبتعداً عنهم . فلم يلحظوني . قلت : نجوت . ولكن ، اين اسير ؟ لا مال عندي ولا عنوان . فكيف اتدبر امري في بيروت ؟

قلت في نفسي : هذا اسوأ من الحبس . فعلي ان اعود

اليهما ، فالحبس اقل سوءا .

فعدت اليهم . فسألني ضابطهم : ومـن انت ؟ قلت : ثالثهم . قـال : فلماذا سلمتنا نفسك ؟ قلت : لا مـال ولا عنوان .

ـ فأين مالكم ؟

قلنا : لدى كبيرنا .

وكنا جمعنا لديه عشرين جنيها ، مالا صامتا ، اخذ العسكر نصفه وشتمونا . واما النصف الآخر فأبقوه مع كبيرنـا ، فأنفقناه فيما وراء البنك في بيروت . وعدنا على الطريق نفسها . ولكننا لم نحد عنها نحو كروم الدوالي ، فقـد كان الضابط اكتفى بالجنيهات العشرة ذهابا وايابا . فلما التقانا عائديـن حيانا وسأل : اين السلاح ايها المجاهدون ؟ اجـاب كبيرنا : سلاحنا العلم ، وما معنا شروى نقير . فلم يشأ الضابط ان يقتسمها . بل صفع كبيرنا على قفاه وصاح اعبروا ! فطرنا هاربين نحو حدودنا ، وكبيرنا يقول : العلم بالشيء ولا الجهل بـه .

فقلت : مليح ان صار هكذا ولم يصر غير شكل . فصفعني . فبكيت .

ولكنني كنت ابكي على غزالة التي ضاع غزالها في بيروت . وتبينت سبب صدها .

وبقيت ، وانا في صور فيما بعد لاجئـا ، اتوق الى زيارة الدالية على الحدود ، حتى سمعت الدكتور عشيق اختـي ، يوما يقول : اصبح الفلسطينيون لاجئين تنفر البنات منهم . فتحولت نحو اللاجئات . فاللاجئات للاجئين . فوجدتهن ، على غير حالتنا ، مشتهيات . فانشغلن عنا . فعدت الى دولة اسرائيل وانا عطشان .

كيف انقذ الفجر الصادق سعيدا من الضياع في ديأميس عكـــا ؟



وهكذا ، يا محترم ، تحولت عن طريق بيروت يسارا ، فدخلت في ازقة عكا،ودرت حول المسجد حتى حارة الخرابة. فانقضى الفجر الكاذب واشتد سواد الليل . فأخذت اتلمس طريقي واتعثر . حتى رايت ضوءا في جهة البحر غربـا يفاضن بعينه مفاضنة متناسقة كأنما يستحثني اليه ويدعوني . مثل عين استاذ العربية اليسرى ، المصابة بداء الفضن العصبي . فلما لحظتها اول مرة حسبته يدعوني الى اللوح . فقمت الى اللوح . فصاح : عد الى مكانك يا لوح ! فعدت . فظلت عينه اليسرى تغضن . فحسبت انني فهمت مأربه . فلما تلا علينا النشيد : « فلسطين بلادي ، هيا يا أولادي » ، وغضن بعينه اليسرى ، ضحكت قبل ان يتم البيت . فتوقف مذهولا .. فسمعت لهاث الطلبة المذعورين . فنزل علي ضربا بالمؤشر حتى تحطم . ثم حكم علي بأن اقعد بعد الدوام انسخ قصيدة امرىء القيس :

سما لك شـوق بعـدما كان أقصرا
وحلت سليمـى بطن ظبي فعرعـرا

حتى البيتين :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونــه
وايقــن انـــا لاحقـــان بقيصرا

فقلت لـــه لا تبـك عينـــك انمـا
نحـــاول ملكـا او نمــوت فنعذرا

عشرين مرة !

ومنـــذ ذلك الحين تحققت عاقبـــة الاستهزاء ، فحمدت معلمي على ما اصاب عينه اليسرى من غضن عصبي . وقلت في نفسي : مليح ان تحطم مؤشره على بدني .

ولكنني ايقنت ، وانا ارقب الضوء المغضن ، المنبعث مــن ناحية الغرب ، انه ليس عين معلمي اليسرى . ذلك لان اشباح المسجد كانت اخبرتني بأن معلمي هذا أستشهد وهو ينقل متفجرات من حيفا الى عكا في الاسبوع نفسه الذي قضى فيه الجيش البريطاني على الثوار في وقعـــة المصرارة في القدس ، وفي القسطل على طلعة القدس ، قبل زحف الجيش العربي ، بقيادة ابو حنيك ، جلوب باشا ، على تلك المناطق من فلسطين التي تقرر اخلاؤها من العرب ، رحمه الله .

لذلك توجهت نحو الضوء المغضن وانا متحقق انها دعــوة سماوية ، حتى اشرفت على البحر ، فرأيت ان منارة عكا الى يساري ، هي التي كانت عينها تغضن ، وتدعوني .

فاستهواني هذا الضوء الذي لم ينطفىء ، بعد ان انطفأت بقية الاضواء في عكا المجتشمة صبرا .

ورحت اتقدم في اتجاه المنارة على درب خاو ، وقــد هدأ

البحر ، وانكفأ الموج ، سوى مداعبة هينة مع سيقان الصخر الرابض امام سور أحمد متأهبا لالتقاط قبعة نابليونية اخرى.

نعم ، يا محترم . فاذا ما انفك الادميون يربضون هذه الربضة ، فكيف لا يفعلها صخر عكاء ؟ ولقد ظل العكيون يرددون ، استخفافا : يا خوف عكا من هدير البحر ! حتى اثبت جيرانهم الحيافنة ، وهم يهرعون اليهم،عبر البحر المائج، انهم اشد استخفافا بالبحر منهم .

حتى تناهى الي صوت فجائي دون ما مفاجأة ، ينادي : يا سعيد ، يا سعيد ! فاستحوذني شعور الذي يسترق النظر من ثقب المفتاح على عذراء في خدرها . فأردت ان اعود القهقرى استحياء لولا انه عاد ونادى : هلم !

قلت : ها انذا

قال : اقترب !

فاذا بهيئة رجل طويل القامة ، ينبثق مع الضوء من صخر المنارة ، فينتشر مع ضوئها ويختفي باختفائه ، كأنما هو مفاضنة عين المنارة . وقد التف بعباءة زرقاء ذات زبد ابيض، مثل قنديل البحر . وهو يتقدم نحوي وأنا اتقدم نحوه حتى التقينا في منتصف الفسحة بين بقية السور يمينا وبقية السور يسارا على ارض حارة الفاخورة .

فلم ار من وجهه سوى تجاعيد اشبه بصفحة البحر حين تلفحه نسمة شرقية . فألقي في روعي ان في التجاعيد جمالا مثلما يكون الجمال في نضارة الصبا . ولولا رهبة الحلكة لأكببت عليه الثم خده .

وسوى عينين واسعتين ، غؤورين ، على حور انيس ، يعمق

غورهما كلما اكتنفهما الظلام ، ثم تطفوان كلما انعكس الضوء عليهما ، كأنما الحدثان ، الليل والنهار ، يتعاقبـان فيهما في لحظة متكررة .

وسوى جبين عريض سرعان ما تحققت ان ما يختفي عني منه اعرض مما طاق بصري ان يلحظه لاول وهلة . وفيما بعد، حين وقفت اول مرة في حياتي امام ناطحة سحاب ، وانا لاه ، فانتبهت على انني اصعـد البصر في بناء شامخ فـلا ارى ، للوهلة الاولى ، جميع علوه الشامخ،تذكرت جبين شيخ المنارة.

فمد يده الي . فصافحتهـا . فشعرت بالراحة . فلم اسحب راحتي . وقلت في نفسي : ان في راحته لاسرارا .

قال : الم تكن تبحث عني ؟

قلت : طول العمر يا ذا المهابة . فهل جئتم ؟

قال : نحن هنا ، نحن هنا ، حتى تجيئوا الينا .

قلت ، ومـا زالت راحتي في راحتـه : كنت حسبت ان المصافحة شيمة همجية .

فتبسم حتى صفت صفحة خده من تجاعيد البحر ثم قال : ونحن حسبنا انكم ، لما اخذتم هذه الخصلة ، عبرتم علـى نصف الطريق الينا . ان أول انسان صفق كفا بكف استحسانا نقشنا اسمه على لوحة الخالدين من قبل سلامة وبتهوفن وسيد درويش . ونراه نبيكم الاول . ويخجلنا ان اكثركـم ما زال يبخل على فنان ، او على حادي ركب ، بهذا الثمن . اثنان اهل الارض صدرنا بهما لوحتنا : اول من اشعل نارا ، واول من صافح اخاه . وكانا اول من تصافح . ابق راحتك في راحتي واسترح !

ففعلت .

قال : فماذا تريد يا سعيد ؟

فهتفت : ان تخلصني .

قال : ممن ؟

فسحبت كفي من كفه فزعا . وحبست لساني قبل ان يزل فيما لا تحمد عقباه . كان ابي رحمه الله ، قد علمنا ان الناس يأكلون الناس ، فحاشا ان نثق بمن حولنا من الناس . انما علينا ان نسيء الظن بكل الناس ، حتى ولو كانوا اخوتك من بطن امك ومن ظهر ابيك . فاذا لم يأكلوك فقد كانوا يستطيعون ان يأكلوك . ووالدي،رحمه الله ، ظل يأكل الناس حتى اكلوه .

فأمسكت لساني، حرصا ، وقلت في نفسي : يكون الحاكم العسكري ارسله ليختبرني . وقلت : شكراً يا ذا المهابة ، فأنا اكاد ان لا اعرفك . وهنأت نفسي على هذه اليقظة .

قال : اتبعني !

فقلت في نفسي : يكون لا يزال يختبرني . فتبعته .

فدخل بي تحت قنطرة الى يمين السجن . فساحة مسجد الرمل . ثم دار بي حول جامع الجزار .. فاذا بقبو غصنا فيه ، فاذا نحن في ديماميس عكا ، وقد جعل نور عينيه كشافا امامنا .

حتى دخلنا في بهو رحب ، رطب ، قد انكفأت أجنابه عن مصاطب افترشنا احداها .

فقال : كان من سبقكم يبني فوق من سبقهم ، حتى جاء

جيل الاثريين ، يحفرون من تحت ويهدمون من فوق . فاذا سرتم على هذا المنوال ستبلفون الدناصير* .

قلت : فما هذا المكان ياذا المهابة ؟

قال : هذا بهو التجار من جنوا . وفيه كانوا يبيتــون ، ويتقايضون ، ويتقمرون ، ويتقامرون ، ويلدون ، ويولدون ، ويدفنون ويدفنون .

قلت : فلماذا اثخنوا الارض بهذه الدياميس ، يا ذا المهابة ؟

قال : ليستتشروا وليكفوا شر الاهالي ، فوق ، عنهم .

قلت : ولكن الدياميس لم تنقذهم .

قال : ولكنهم لم يحسبوا ذلك .

قلت : ما اسمك يا ذا المهابة ؟

فرمقني بعينين رايت في سوادهمــا الواسع سعيديــن ينظران الي في تعجب : سعيدا ملحاحا وسعيدا خائفا .
ثم قال وهو يبتسم : عندكم يخرج الانسان على النــاس باسمه . اما نحن ، عندكم ، فأنتم الذين تطلقون علينا الاسماء التي تستريحــون عليها . سمني المهــدي ، الذي استراح اجدادك عليه ، او الامام ، او المنقذ .

فقال احــد السعيدين ، وكــان السعيــد الآخر ينكمش ويتضاءل : فأنقذنا ، يا ذا المهابة !

فحدجنــي بنظره حتى تكسرت أمــواج الفضب عــلى

---

* حيوانات منقرضة

السعيدين في عينيه فتلاشيا ، ثم قال: هـذا شأنكم ، هـذا شأنكم ! حين لا تطيقون احتمال وأقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره ، لانكم تعلمون انه باهظ ، تلتجئون الي . انني انظر الى ما يفعله الناس الآخرون ، وما يبذلونه ، ولا يسمحون لاحد بأن يحشرهم في ديماس من هذه الدياميس، فأغضب عليكم . ماذا ينقصكم ؟ هل بينكم من تنقصه حياة حتى لا يقدمها ، او ينقصه موت حتى يخاف على حياته ؟

وكنت استمع اليه وانا مبهور النفس . واحلولك الديماس في عيني . وتذكرت فجري الموعود في مدينتي حيفا الحبيبة . فاشتدت علي الهواجس .

فقلت : غدا اعود الى مدينتي حيفا ، يا ذا المهابة .. واحيا فيها ، فانصحني .

فهدا اضطرابه . وقال : لن تجديك نصيحتي . الا انني سمعت في بلاد فارس حكاية عن فأس ليس فيها عود القيت بين الشجر . فقال الشجر لبعض : ما القيت هذه ها هنا لخير ! فقالت شجرة عادية : ان لم يدخل في أست هذه عود منكن فلا تخفنها * .

اذهب فهذه الحكاية لا تصلح للعود .

ــ فهل استطيع ، يا ذا المهابة ان القاك مرة ثانية ؟

ــ متى شئت ، تعال الى هذه الدياميس .

ــ في اية ساعة ، يا ذا المهابة ؟

ــ حين تخور .

ــ متى ؟

ولكنه كان قد اختفى . فبقيت وحدي اتخلل في الدياميس، وأهيم في ديماس حتى اتعثر بآخر،الى آن شق الفجر الصادق بطن الارض فألفيتني في باحة المسجد اتمطى واتثاءب .

---

* حكاية اوردها الجاحظ .

- ١٣ -

كيف اصبح سعيد زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين

الان ، وانا في بحبوحة من الوقت ، استعيد لقائي الاول برجل الفضاء العجيب ، فأعجب من نفسي كيف تركته يمضي دون ان اتعلق بأهدابه والح عليه ان ينقذني من هذه الحياة المهولة .

اما في حينه فكنت مشغولا باعداد نفسي لملاقاة الادون سفسارشك ، فكنت احطه فوق القلب مع رقية جدتي .

ولكنني لن أطيل عليك السرد يا محترم . فقد دخلت مركز البوليس في عكا في الساعة السابعة صباحا بالضبط ، كما امروني . فسألت عن سيدي الحاكم العسكري الذي سيحملني الى حيفا . فجعلوني انتظر حتى الرابعة مساء دونما طعام أو شراب سوى قدح من الشاي قدمه لي جندي شاب حدثني باللغة الانجليزية ، فرددت عليه بأحسن منها .

قال انه متطوع جاء ليحارب الاقطاع ، وانه يحب العرب . وقبل أن يترك المركز عاد وصافحني بحرارة ووعدني بانه ،

حين تنتهي الحرب ، سيقيمون لنا كيبوتسات يعتمدون فيها على امثالي من الشبان المتحررين الذين يتقنون لغة انسانية . وقال : شالوم ! فأجبت ب «بيس» مؤكدا انسانيتي . فضحك وقال : سلام ، سلام ، بالعربية . فانفرجت غمتي .

ثم اركبني احدهم الى قرب السائق في سيارة جيش مغبرة وموحلة . وركب الى جانبي ، صامتاً ، حتى اشرفنا على مدينتي حيفا عند السعادة . فلم ابحث عن شقائق النعمان لانني تيقنت من عدم وجود مكان لذكريات الطفولة على هذا المقعد الذي لا يتسع لثلاثتنا .

فقال : أهلا وسهلا في مدينة اسرائيل !

فحسبت انهم غيروا اسم مدينتي الحبيبة ، حيفا ، فاصبح «مدينة اسرائيل» . فانقبض صدري مثلما انقبض ، فيما بعد، حين مررنا بوادي الصليب ، فاذا بالدرب خال من الناس ومن لعلعة الرصاص ، التي تعودنا عليها في الاشهر الاخيرة قبل ان - يسقطا - والدي وحيفا . فقلت في نفسي : ها قد حل السلام الذي تمنيناه ، فلماذا شعوري بالانقباض ؟

فاجاب حارسي، وكأنما كان يحرس افكاري ايضا: السلام، ما وسع السلام !

فتحركت وانا احاول ان اتوسع في مقعدي . فزجرني فانزجرت . فأوقف السيارة وطلب مني الانتقال الى ظهرها المفتوح ، قائلا : كل واحد يقعد في مكانه .

ولكنني لم اجد على ظهرها مقعدا ، فوقفت في مكاني .

حتى دخلنا في وادي النسناس ، من شارع الجبل ففرن

الارمني . فلم انتظر ان القى طفله الذي علمته القراءة العربية، ذلك لان باب الفرن كان مسدودا .

فقال : انزل .

فنزلت .

فسلمني الى اللجنة العربية الموقتة .

فتسلموني شاكرين . فلما اقفى شتموه .

وصاح احدهم : هل يحسبون مقر اللجنة اوتيلا ؟ لا بد ان نحتج على ذلك في مكتب وزير الاقليات .
فأردت توكيد عروبتي كي استميلهم نحوي فتحسرت امامهم على اسم مدينة حيفا الذي اصبح مدينة اسرائيل فحملق احدهم بالآخرين ، وقال : واهبل ايضا ؟

فلم افهم كيف أعتبروني أهبل حتى معركة الانتخابات الاولى حين فهمت ان كلمة «مديناه» بالعبرية تعني« دولة » بالعربية . فحيفا أبقوا على اسمها لانه توراتي . فاقتنعت ، بيني وبين نفسي ، بأنني حقا أهبل . وأكبر دليل على ذلك انني كنت آخر من تحقق من أعضاء اللجنة أن المرحوم كيوورك كان يقدم لنا ، في مطعمه ، لحم الحمير . فنطعم ونشكره .

وفي صباح اليوم التالي نزلت الى شارع الملوك حيث استقبلني الادون سفسارشك على عتبة مكتبه ، وهو في ثياب الجندية . فنقدني عشر ليرات صحاح وقال : ابوك خدمنا ، خذ هذه وكل ! فصرت آكل في مطعم كيوورك حتى وجد لي احد أعضاء اللجنة بيتا مهجوراً من بيوت عرب حيفا . فجاء الجنود المسرحون وطردوني من هذا البيت . فاشتغلت زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين .

ـ ١٤ ـ

سعيد يلتجىء لاول مرة الى الحواشي

حاشية : بعد ان دارت الارض دورة كاملة أي في هــذه الايام ، قرات في صحفكم عن المذكرة التي قدمها وجهاء الخليل الى الحاكم العسكري ان يبيح لهم استيراد الحمير من الضفة الشرقية ، فقد ندرت . فسأل الصحفي: أين ذهبت حميركم؟ فضحكوا واخبروه بأن جزاري تل ابيب انفقوهــا في صنع النقانق . وحيث انكم كنتم تؤكدون لنــا ، يا محتــرم ، أن التاريخ حين يكرر واقعة ، لا يعود على نفسه بل تكون الواقعة الاولى مأساة حتى اذا تكررت كانت مهزلة ، فاني اسألكم : ايهما المأساة ، وأيهما المهزلة ؟

هل هي مأساة الحمير في وادي النسناس ، التي ظلت اكثر من سنة سائبة : حمير من الطيرة ، وحمير من الطنطورة ، وحمير من عين غزال ، وحمير من اجزم ، وحمير من عين حوض وحمير مــن أم الزينات* صينت من العقل ، ومن لغط الاناث ، فلم تهاجر ، فنفقت دون أن يتحقق من لحمها الدسم

---

* قرى عربية هدمت وانقرضت .

اهي المرحوم كيوورك ، ام هي مهزلة النقانق الشهية ، صنعة تل ابيب ؟

اعلم ، يا محترم ، انكم عنيدون فيما تستنبطونه من نتائج. ولكن ، اليس صحيحا انه حيث يهاجر القوم ، تبقى الحمير ، وحيث يبقى القوم لا يجد الجزار ما ينقنقه سوى لحم الحمير ؟ خذوا عني هذه الحكمة : كم من شعب انقذته بهيمة من سكين جزار !

وفي ايامي الاولى ، زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين ، ولجت بيوتا عربية مهجورة كثيرة في حيفا ، من ابوابها المكسورة . فوجدت اقداح القهوة مصبوبة لم يجد أهل البيت وقتا حتى يشربوها . وجمعت أثاث بيتي بعضه من هذا البيت ، وبعضه من ذاك البيت ، مما بقي من متاع لم تمتد اليه ايدي الذين سبقوني في الزعامة ، الذين سبقتهم يدا الحارس على الاملاك المتروكة ، الذي سبقته ايدي وجهاء حيفا من زملاء وجهاء حيفا العرب ، الذين لم يتركوا فيلاتهم الا بعد ان اوصوهم بها خيرا حتى يعودوا « بعد شهر على الاكثر » ، فحفظوها في القاعات الشرقية التي أفردوها في فيلاتهم لتوكيد صداقة قديمة لا تفنى ولا تزول مثل خشب السنديان . فاصبحوا يتباهون بالسجاد العباسي (نسبة الى شارع عباس في حيفا) كما تباهى أمثالهم في القدس بالسجاد القطموني (نسبة الى حي القطمون في القدس) . وصار الشيوعيون يسمون الحارس على الاملاك المتروكة بالحارس على الاملاك المنهوبة ، فأخذنا نلعنهم علانية ونردد اقوالهم في سرائرنا .

فلما وقعت حرب الايام الستة ، التي جاءت بعد عملية قادش (المقدسة) مثلثة الرحمات* ، التي جاءت بعد حرب

---

* الاشارة الى العدوان الثلاثي في سنة ١٩٥٦ .

الاستقلال ، ورايت اولاد القدس والخليل ورام‌الله ونابلس يبيعون صحون الزفاف بليرة قلت : بليرة ولا بلاش ! وأيقنت صحة استنباطكم ، يا محترم ، بأن التاريخ ، حين يعيد نفسه ، يعيدها متقدما اماما ، من بلاشي الى ليرة . ان الامور ، حقا تتقدم . وانتهت الحاشية .

— ١٥ —

الدرس الاول في اللغة العبرية

لما اشتغلت زعيم عمال في اتحاد عمال فلسطين ، اوقعتني الشجاعة في مأزق لم أنج منه الا بمزيد من هذه الشجاعة . ولولا اصحابك ، يا محترم ، الذين كتبوا عني في جريدتهم ، وهاجموني ، فأيقنت انني مهم لما وقع ما وقع . ولكن ، كان من الممكن ان يقع ما هو اسوأ منه .

فحين ايقنت انني مهم ، تشجعت وذهبت عصرا ، بالباص ، الى وادي الجمال ، على شاطىء البحر تحت منارة اللاتين ، حيث كان والدي ، رحمه الله ، قد شيد لنا بيتا بعرق جبين اخي الذي مزقه الونش اربا . ولم اخبر أحدا بنيتي على هذه المغامرة .

فلما عبرت خط السكة الحديد ، وترحمت على شاعرنا مطلق عبد الخالق الذي دهمه القطار وهو يعبر الخط من هذا المكان ، تذكرت كلمة نوح ابرهيم . « الدين لله أما الوطن فللجميع » ، فأسرعت الى خالتي أم أسعد التي تكنس كنيسة الكاثوليك منذ طفولتنا .

فوجدتها تكنس الحوش في المكان الذي تركناها فيه فقلت في نفسي : الحمدلله على ان شيئا لم يتغير ، ولا مكنسة أم أسعد المصنوعة من عيدان العليق .

وانحنيت على يدها اقبلها . فصاحت : انا محصية يا خواجا ! ولفظتها« مخصية »* كما يلفظها العسكر .. واسرعت الى غرفتها وانا وراءها ، لا افهم شيئا .

وقامت الى ايقونة ستنا مريم ، المعلقة فوق فراشها المرتب ، فأزاحتها . فاذا بكرة في الجدار اخرجت منها صرة من قماش ابيض ، فكتها مدبرة بظهرها حرصا على ما في الصرة . وكانت تردد : يا عدرا ، هذه مصاري الجهاز !

ثم مدت يدها نحوي بقسيمة الاحصاء ، المطوية بعناية . وصاحت بصوتها الضعيف : انا مخصية ، وفي رعاية سيدنا المطران . فماذا تريد مني يا خواجه ؟

فصحت بها : أنا سعيد يا خالتي ، فكيف تنسين ؟

قالت : من سعيد ؟ قلت : الطيراوي ــ ففي وادي الجمال كانوا يظنون كل قروي انه من الطيرة .

فدارت على نفسها عدة دورات . فاخذتها بين يدي . وجلسنا على الديوان وهي تسألني عن والدتي وعن أختي ، وعن لبن الطيرة الذي لا يصلح غيره لشيخ المحشي .

قلت : وبيتنا ؟

قالت : سكنوه !

قلت : فهل تعرفينهم ؟

قالت : انت ترى يا ولدي كيف خبا سراجي ، وكل

---

* اي انه جرى احصاؤها في سجل السكان . فهي محصية .

الخواجات خواجات . ولم يعد احد يصطاد سمكا .

قلت : فهل يستقبلونني اذا زرت بيتنا ؟

قالت : علمي علمك ، يا ولدي . ورسمت على صدرها اشارة الصليب . فودعتها وقد اثارت هذه الاشارة هواجسي.

فلما مررت من امام بيتنا ، ورايت هناك غسيلا منشورا ، خانتني شجاعتي . فتظاهرت بأنني جئت أتنزه على شاطىء البحر . واخذت اذهب واعود من امام بيتنا . وفي كل مرة اهم بأن اطرق الباب ، فتخونني شجاعتي .

حتى امسى المساء . فخرجت امرأة تلم الفسيل . فنظرت نحوي . ثم هتفت بأمر . فأسرعت مبتعدا . ولكنني رايت رجلا ، في مثل سنها ، يخرج ويجمع معها الفسيل . قلت في نفسي : هذه خدعة ، فكيف يجمع رجل غسيل بيته ؟ هذه فعلة لم يفعلها ابدا والدي، رحمه الله، مع انني لا اذكر والدتي الا عاجزة وكثيرة الهم .

فازددت سرعة .. حتى اصبحت في الشارع الرئيسي ، امام فيلات موظفي حيفا العرب ، الذين بنوها ورحلوا الى لبنان ، ليبنوا غيرها وليرحلوا . وكان الظلام أطبق . وكنت تعبا وخائفا من مغبة هذه المغامرة . والطريق طويل .

وكان يمر ، بين الفينة والفينة ، عامل يهودي . عرفت ذلك من ثياب العمل التي كانت عليهم . وكان جميعهم متوسط العمر . فالشباب والشابات في الجيش . ولم اكن احمل ساعة . فاحتجت الى معرفة الوقت ، لعل الباص ان يمر ، أو انه قد توقف في هذه الناحية النائية . فبأية لغة اسأل هؤلاء الناس عن الوقت ؟

فاذا سألتهم بالعربية كشفوا امري . فبالانجليزية اثرت شكوكهم . فرحت استعيد ما اذكره من كلمات عبرية حتى تبادر الى ذهني ان السؤال عن الوقت بالعبرية هو : « ما شاعاه » ، الذي وجهته ، يوما الى فتاة قرب سينما ارمون فشتمت عورة امي بالعربية الفصحى .

فلما اقبل احد هؤلاء العمال نحوي ، أطلقتها «ما شاعاه» ؟ فتريث . ثم هش في وجهي . ثم كشف عن رسغه . ثم صاح « أخت » . فلم اكن كسولا وتذكرت ان « أخت » هذه هي ثمان بالالمانية . فترحمت على جارنا خريج شنلر ، وعدت مطمئنا الى وادي النسناس ، مشيا على الاقدام ، وانا مزمع على تعلم اللغة العبرية .

وفيما بعد تذكرت ما كنا تعلمناه في المدرسة عن فك رموز الهيروغليفية ، فأخذت اقرأ اسماء الدكاكين بالانجليزية ، فأقارن الحرف الانجليزي بقرينه العبري على لوحة الدكان ، حتى فككت الحرف ، فتابعته في الجريدة العبرية ، وتكلمتها بأسرع مما قرأتها . واخذني الأمر عشر سنين حتى ألقيت اول خطاب تحية باللغة العبرية . وكان امام رئيس بلدية حيفا ، فسجلها في صحيفته سابقة .

اما العجيب في الامر الان فهو ان صباني نابلس ، بعد ربع قرن من هذا الكلام ، اتقنوا اللغة العبرية في اقل من سنتين . ولما تحول احدهم الى صناعة الرخام علق على مدخل جبل النار لافتة بالخط الكوفي المقروء جيدا عن مصنع « الشايش » الحديث لصاحبه مسعود بن هاشم بن ابي طالب العباسي . و « الشايش » هو الرخام بالعبرية . فليست الحاجة أم الاختراع فقط ، بل ايضا مصلحة كبار القوم ، التي أرخصت أمهاتهم ، فقالوا : الذي يتزوج امي هو عمي ! ومن مصالحهم ايضا أن يحولوا بين العامة والاتفاق على لغة مشتركة ، حتى ولو كانت الاسبرنتو ، لكي لا يحولوا بينهم وبين ملكهم .

- ١٦ -

كيف لم يعد سعيد ابو النحس تيسا

ولكن الامر لم يقف عند هذا الحد . فقد رحت اتعجب من جهل العامل اليهودي باللغة العبرية حتى اقنعت نفسي بأن هذه الدولة ليست بنت معيشة . فلماذا لا احفظ خط الرجعة ؟

فقلت : ما لي غير المحامي عصام الباذنجاني ، صديق ابن العم الوزير الاردني ، واخيه الروح بالروح . وكان قد حول بيته الكبير في شارع عباس الى صومعة ينفث منها اللهب على دولة الادون سفسارشك كلما زاره صحفي اجنبي . حتى الشيوعيين،الذين اعتبرهم وزير الاقليات اخطر طابور خامس في عقر الدولة ، اعتبرهم صديق ابن العم الوزير الاردني مارقين على العروبة وعلى دينها .

وكان لا يعترف بهما ـ بالدولة وبصفحها ـ فيرفض ان يقابل من رجال الصحافة سوى الاجانب . فلا تظهر تصريحاته الا في التايمزين ـ تايمز لندن ، وتايمز نيويورك ، وفي امهات الصحف في بلاد العرب ، من النيل الى بردى . ونحن ، زعماء

العمال في اتحاد عمال فلسطين ، اخرجنا صفير التعجب ، من شفاهنا المزمومة ، على وقاحته القومية حين سمعنا انه رفض تعليم ابنه في الجامعة العبرية في القدس ، بل بعثه الى كمبردج — الى كمبردج ! وعدنا نزم شفاهنا في صفير الدهشة .

فلما ارخى الليل سدوله تسترت بها وطرقت بابه . فتوقفت قرقعة احجار النرد . وفتح لي وهو يخشخش بالزهر . فمسيت عليه ، فأدهشته الزيارة . فلما رأيت احد زملائي ، من زعماء اتحاد عمال فلسطين ، عنده ، وكان يلاعبه، وقد هم بالخروج حين دخلت ، لم اخف دهشتي . فحياني وقال : جاري ! فتنحنحت على سبيل الموافقة . وبقيت اتنحنح حتى خرج .

ولما انتهيت من تعداد ما لابن العم الوزير الاردني من مناقب، ولما انتهى الباذنجاني من التحسر على مصيري الاسود ، ومن الوعد بالعفو عند المقدرة ، سردت على مسامعه ما وقع في مغامرتي ، وما وقع في راسي من نتائج . فباركني وقال : يفرجها !

ولكنه لم يفرجها .

فما ان وطئت قدماي عتبة النادي ، في صباح اليوم التالي، حتى استدعاني يعقوب الى غرفته . فاذا وراء مكتبه رجل ربعة ، وضع فوق عينيه نظارة سوداء واسدل الستائر . فقلت : هذا ضرير .

واقبلت عليه ، واخذت يده في يدي مسلما قبل ان يمدها الي حتى لا احرجه في عماه . فزجرني يعقوب وصاح : تأدب! فوقفت متأدبا .
فقال يعقوب : هذا رجل كبير ، وجاء ليحادثك على انفراد

فلا تخف عنه شيئا .

وتركنا لوحدنا .

فما أن اطبق علينا الباب حتى انتفض الرجل الكبير واقفا، فلم يزدد طوله سوى شبر .

وصاح : اننا نعرف اين كنت اول امس !

فقلت في نفسي : اذا لم يكن هـذا ضريرا فانـه أطرش . فاقتربت من اذنه وصحت : اردت ان استنشق هواء البحر ، ممنوع ؟

فلطمني ، فلم يخطىء الهدف .

فقلت في نفسي : لا اطرش ، ولا ضرير ، بل هو رجل كبير حقا . فتصاغرت له وقلت : اسأل عني الادون سفسارشك .

فصاح : ام اسعد !

فقلت في نفسي : حتى انت ، يا ام اسعد ؟

فصاح : « اخت » . ولفظها المانية فصحى .

فقلت في نفسي : ما بقي الا ان يسألني عن ليلتي السوداء في بيت الباذنجاني .

فصاح : النرد !

فارتميت على الكرسي ، ووضعت راسي بين راحتي وانـا اهتز يمينا وشمالا مثلما عودتنا الوالدة .

ثم وجدتني اقول فيما يشبه العويل: والله العظيم لا اعرف عن ابن عمي الوزير الاردني غير اسمه .

ــ هل هو ابن عمك لزما ؟

ــ والله العظيم لا .

ــ لماذا ؟

فتحيرت كيف ارد على سؤاله هذا . ولكنه كان قد هدأ ، وقام الي ، وربت على كتفي أبويا . وقال : ليكن هذا درسا لك . ولتعلم انه لدينا وسائل حديثة نضبط بها حركاتك وسكناتك حتى ما تهمس به في اضغاث احلامك . وبأجهزتنا الحديثة نعرف كل ما يدور في هذه الدولة وخارجها . فلا تعد

اليها مرة ثانية .

ولكنني ظللت اهتز يمينا وشمالا لا يخرج من فمي غير : انا تيس ، انا تيس !

حتى خرج بعد ان أنزل نظارته السوداء عن عينيه . فرحت اترحم بصوت عال على والدي ، الذي كان اول من ادرك هذه الحقيقة عني .

فالله يستر عرضك يا ام اسعد،ويستر عرضك يا «أخت» . ووالله العظيم استطيع ان اذهب انى شئت ، واستطيع ان افكر بما شئت . ولكنني كنت تيسا حين طرقت باب الباذنجاني . وكان والدي ، رحمه الله ، محقا . كان دائما يغلبني في وقعة النرد ، حتى اذا قلت له : انت غلاب بها يا ابي ، قال : لا يا بني ، بل ان كل اصحابي يغلبونني . ولكنك تيس !

ولما قررت ان لا ابقى تيسا ، لم اخبر الرجل الكبير برأيي في جهازه الحديث .

- ١٧ -

هل كان سعيد هو رأس الخيش ؟

اصبح رأيي في جهازه مقررا . فلو كان يستطيع ، حقا ، ان يحصي علي حركاتي وسكناتي لكان سجل علي لقائي الغريب برجل الفضاء . ولكنه لم يفعل .

فقررت ان اطمئن الى هذا الامر ، فأزور صاحبي الفضائي في دياميس عكا ، فقد يحتاج الى الحذر . واني لمحتاج اليه .

فبالغت في الخضوع لرؤسائي طول الاسبوع وقد قر قراري ان افعلها وان اتسلل الى عكا يوم السبت . . وهو يوم عطلتنا .

وكان السبت ، الذي وقع عليه الاختيار ، هو اليوم الحادي عشر من آخر شهر في سنة ١٩٤٨ ذات الكف العفريتية . فأنا لا انسى هذا التاريخ الذي اصبحت ، فيما بعد ، أؤرخ به حياتي ـ ما قبل وما بعد .

في مساء الجمعة ، عشية السبت ، كنت منزويا في داري ، اجمع شتات افكاري على اسلم طريق اختاره في تسللي الى

هكا صبيحة الغد .

وكنت اطفأت النور وآويت الى الفراش مبكرا حتى لا تزورني جارتنا الارمنية العانس التي ما كانت تطيب لي الا حين نشرب حتى نثمل ــ انا حتى أحسبها صغيرتي يعاد ، وهي حتى تحسبني كبيرها سركيس «الذي ذهب مع العرب» .

وكان من عادتها أن تنشط نشوتها بالتمتمة باللغةالانجليزية عن كلارك جيبل وشارل بوايبه واشباههما .. فلبستني آفتها . فصرت اتمتم ، مثلها ، بما يقال وبما لا يقال ، حتى اني لعنت ، في اليوم السابق ، الباذنجان وكل من يستطيبه . فقامت غاضبة دفاعا عن الباذنجان المحشو بالبرغل وباللحم . فاحتبست. لذلك قررت ، من باب اليقظة،الا أفتح لها الليلة الباب .

وانا في هذه الهواجس ومثلها ، اذا بطرق على الباب . قلت: جاءت ، ولكنني لن افتح لها ولن اعتذر عما بدر مني في حق الباذنجان . فعاد الطارق يطرق . فرأودتني النفس الامارة . فقلت : هل افتح لها ولا أتمتم ؟ فعاد الطرق على الباب . فقمت وانا اقول : لن يكون الجهاز يحكي بالارمنية . وهذه مسكينة وانا مسكين . وفتحت الباب .

فاذا امامي امرأة وسط ، ذابلة السحنة وخضراء العينين، تسألني في استحياء ورجفة : سعيد ؟

فأخذتني المفاجأة ، فانعقد لساني ، وانا انظر في عينيها الخضراوين واطلب من نفسي ملحا اناتذكر هذا الوجهالذابل، لا بد انها من قريباتي في القرية ، او جاءت من وراء الخطوط . فما جاء بها في هذه الليلة الليلاء ؟

قلت همسا : تفضلي . وانتابتني المخاوف .

قالت : اختي يعاد تحت . فهل تصعد ؟

فبدات اشك فيما ارى وفيما أسمع . لقد كنت ، حين تلح الحاجة علي ويستفرغني الفراغ ، اقعد مفتوح العينين ، او امشي مفتوح العينين ، فلا ارى سوى يعاد ، فأقبض بيدي على يدها ، ثم اضمها الى صدري ، فنروح في غيبوبة لم اقم منها مرة ، وانا في مكتبي في اتحاد عمال فلسطين ، الا على ابي مصطفى الاعرج وهو ينقض علي بعصاه لانني تركته ينتظر خارج المكتب نصف نهار ، بعد ان قلت له ان ينتظرني ربع ساعة ، فألقاني في غيبوبة اخرى .

ــ هل حقا انت اخت يعاد ؟
ــ فهل تصعد ؟
ــ يعاد ، يعاد .
ــ عد ! لا يصح ان تنزل اليها بثيابك الداخلية . عد والبس ثيابك فأنا اناديها .

ففعلت ما نصحتني اخت يعاد بأن افعله . ورحت اتراكض بين الغرف وانا البس ثيابي ، تارة ، والقي في المرحاض بما احتوته منافض السجائر من بقايا اعقابها الملوثة بأحمر الشفاه، اخرى . فلما سحبت حبل ماء الشطف فلم ينهمر ، ملأت دلوا والقيته فيه ، فانسكب الماء على الارض،فانسحبت عليه، فوقعت على يدي وركبتي امام الباب المفتوح ، فاذا انا ، على هذه الحال ، امام قدمي يعاد بعد طول الغيبة .

فقالت : جازاك !

فانتصبت واقفا والماءان يتصببان من وجهي ، ماء الوجه وماء المرحاض . فتهالكت على اقرب مقعد ورحت ابكي . فتراكضت يعاد واختها نحوي ، وجففتا الماء ودموعي ، وطمأنتاني على ان كل شيء يصلح .

فاي شيء هذا الذي يجب ان اصلحه ؟

فقالت يعاد معاتبة : انت تعرف يا سعيد ، سامحك الله ، ما فعلت بأبي وبالآخرين .

ولكنني ، سامحني الله، لم افهم شيئا .

فقالت اخت يعاد ان يعاد جاءت اليوم من الناصرة ، مشيا على الاقدام ، عبر شفاعمرو ، فابطن ، فوق الجبال وحيدة ، لتخبر اختها في حيفا بأن والدهما قد القوا القبض عليه في الناصرة ، وبأنني انا ، سعيدا ، السبب في القبض عليه،وبأنني ارشدتهم اليه .

انا ؟

فقالت يعاد : كلهم يقول انت . أنت راس الخيش ؟

ـــ انا ؟

ـــ وابوك من قبلك ؟

ومن خلال العتاب ، المشبع بالنحيب وبايماني المغلظة انني لا يمكن ان اخرب بيت احد من الناس ، فكيف ببيت يعاد ، فهمت ان ابا يعاد كان قد هاجر مع عائلته من حيفا الى الناصرة ، وذلك بعد لغم الرفينري الاول* . فلما سقطت عاصمة الجليل دعا الجيش الاهالي الى تسليم اسلحتهم . فلما ابلغهم رئيس البلدية ان لا سلاح في الناصرة سوى طاولات شيش البيش التي انكبوا عليها في الساعات التي رفع فيها منع التجول ، بدأت عمليات التطويق .

فطوقوا الحارة الشرقية ، التي التجأت اليها العائلة . وحشروا الرجال في الارض الخلاء عند الجابية ، وراء كنيسة

* معامل تكرير البترول فى حيفا .

الاقباط ، طول النهار في الحر الاوار وبدون ماء مع ان الجابية كانت تفيض تحت اقــدامهم ماء مقدسة مــن عين العــذراء المقدسة .

وقالت يعاد متباهية انها هي التي ذكرت الشيوعيين ببيت الشعر الذي جعلوه عنوان نشرتهم والتي وزعوها في اثنــاء التطويق :

كالعيس في البيداء يقتلهــا الظمأ
والمــاء فــوق ظهورهــا محمول

فاستدعاهم الحــاكم العسكري . فلما انكر أن يكــون الجيش قد منع جمال الحارة ودوابها عن ماء الجابية يــوم التطويق ، حاولوا ان يفهموه ان الامر تورية . فثارت ثائرته دفاعا عن كرامة بني الانسان الذين لا يصح تشبيههم بالدواب، حتى ولو كانوا اعداءنا العرب . « لقد اصبحتم مواطنــين ، مثلكم مثلنا » . وطردهم من حضرته .

وكان الجيش ، اثناء التطويق ، قد نحا جانبا كل من ارشد اليه راس الخيش ، ثم نقلهم الى سجن الجملة ، على اعتبــار انهم اسرى حرب . وكان من بينهم والد يعاد .

ــ فما راس الخيش هذا ؟

قالت يعاد : رجل اخفوا راسه بعديلة خيش ، ثقبوا فيها ثلاثة ثقوب ، لعينيه ولفمه . واقعدوه وراء طاولة تحوطهــا عسكر . وكان رجالنا يمرون امامها فيتحققونهم . فاذا اهتز راس الخيش الى امام مرتين نحوا الرجل عن بقية الرجال . فأخذوا ، في التطويق الواحد ، ما لا يقل عن خمسمئة رجل وولد ، اسرى حرب .

فلماذا فعلتها يا سعيد ؟

— ١٨ —

الليلة الاولى ، وحيدا ، مع يعاد

لقد اقنعت يعاد واختها بأنني لم اكن راس الخيش . ولكنني اصبحت ، منذ تلك الليلة خرقة الخيش !

كانت يعاد جاءت من الناصرة الى حيفا دون اذن من السلطة . فهي متسللة . وكانوا يدخلون البيوت ، من ابوابها، في كل لحظة ، بحثا عن هؤلاء المتسللين . فاذا وجدوهم نقلوهم في ظلام الليل الى مشارف جنين ، في السهل الواقع بينها وبين قرية المقيبلة الذي كان الجيش البريطاني معسكرا فيه . فلما انجلى عنه خلف لنا فيه الفاما كثيرة اضاف اليها عساكر العرب وعساكر اليهود الفاما اخرى ، وذلك لان خط المواجهة الاول كان يقوم هناك . فلما وضعت الحرب اوزارها على صدورنا انفجر احدها تحت اقدام اولاد صندلة وهم عائدون الى امهاتهم من المدرسة . فقتل على الطريق ١٧ منهم كما جاء في البيان الرسمي غير الجرحى الذين ماتوا فيما بعد. وفي حينه جمعنا يعقوب والقى على مسامعنا محاضرة عن الشيوعيين اعداء السامية ، الذين يحرضون الناس على الاضراب والتظاهر مدعين ان اللغم هو لغم اسرائيلي .

وقال : بما ان جمعيتنا ، اتحاد عمال فلسطين ، هي منظمة دمقراطية ، في دولة دمقراطية ، فأنتم احرار في ان تعلنوا ان اللغم هو من بقايا الانجليز ، او ان اللغم هو من بقايا العرب .

فلما تنطح له زميلنا الشلفاوي (كان مشلول اليد اليمنى) وقال انه قرأ في بيان الشيوعيين أنهم يتهمون الحكومة بالاهمال في تنظيف الطريق من الغام الحرب ، اجابه يعقوب : نعلم ان زوج اختك هو واحد منهم !

فانشل لسان الشلفاوي .

ولذلك اتفقنا على ان بيت اخت يعاد ، التي لم تترك بيتها واولادها في الحليصة منتظرة عودة زوجها الذي خرج ذات صباح وهو يقول لها : انتظريني فانني عائد ، ولكنه لم يعد ، هو بيت لا مأمن فيه على اختها المتسللة .

واتفقنا ، وانا خافض البصر ، ان تبيت يعـاد ، الليلة ، في بيتي حيث افردت لها غرفة خاصة وانا خائف ان تسمعـا خفقان قلبي .

وحلفتني اخت يعاد بعرض اختي ان اصون عرضها .

— وهي لك ، اذا شئت ، فيما بعد ، شرعا .

وودعتنا وانصرفت وانا مبهور الانفاس وقـد تشابك في ذهني عرض اختي الضائع ويعاد التي لقيتها فجاة ، والتـي دخلت الى غرفتها واقفلت عليها الباب واخذت تبكي وتنشج بصوت مسموع ، وانا مستلق على فراشي امام بابها لا انام ولا اقوم . لا هي تكف عن البكاء ، ولا انا اكف عن الاستلقـاء ، حتى سمعتها تنادي :

ـ سعيد !

فتظاهرت بأنني نائم .

ـ سعيد !

فحبست نفسي .

فاذا هي تفتح الباب بيننا. فأغمضت عيني. فشعرت بأنها تسوي اللحاف فوقي . ثم سمعت وقع خطواتها وهي تسير الهوينا نحو دورة المياه، ثم تغتسل، ثم تعود من حيث جاءت. وتترك الباب بيننا مفتوحا فتحا خفيفا .

فكيف اقوم الآن ؟

ستعلم ، حينئذ ، انني مستيقظ. فكيف لم ارد على ندائها؟ انها حبي الاول . وبعد هذه الليلة اصبحت حبي الابـدي . فكيف تركتها تبيت في بيتي ، وحيدين ، ولم اقل لها كلمـة واحدة ؟ قبلة واحدة ؟ هل انا جبان ؟ فكيف لم اجبن امـام صاحبة سركيس ؟

فماذا أفعل الآن ؟ والى متى اظل مستلقيا ؟

ولكنني لم استلق طويلا .

- ١٩ -

يا سعيد ، لا يهمك ،
فانني عائـدة !

كان المتسلل الابدي ، الفجر ، يدهمني من النافـذة الشرقية ، وكنت راقدا احبس انفاسي ، مثلما يحبسها ولـد طلع الفجر عليه وقد بلل فراشـه فينتظر عجيبة تنقذه مـن مصيبة ، فاذا طرق شديد على الباب نفضني فألقاني في غرفة يعاد التي كانت واقفة وقد ارتدت جميع ثيابها ، وهي ترتجف جزعا .

قالت : هل جاؤوا ؟ قلت : لست ادري .

ـ فمن الطارق ؟

ـ لست ادري .

ـ اغلق الباب علي ، ولا تخبرهم بوجودي هنا ، بعرضك !

واشتد طرق الطارق . وسمعنا لغطا .
فهمست : يا حياتي .
فهمست : ليس الان ، ليس الان .
ـ انت لي

ـ فيما بعد ، فيما بعد .
ـ بل الان ، الان .

فابتعدت عني ، فتشبثت بها ، ففرت الى غرفتي ، فوقعنا على السرير . فسمعنا الباب الخارجي ينخلع . فانخلع ضلعي الشمال . فأغلقت الباب عليها،ووقفت امامهم في ثياب النوم.

لقد كانوا عساكر .
ـ تفتيش !
ـ لماذا خلعتم الباب ؟
فأزاحني احدهم من امامه . فانتشروا في البيت ينبشون الدواليب ويقلبون الادراج .
ـ هل انت وحدك هنا ؟
ـ وحدي .

وكنت ، في هذه الاثناء ، قد لبست بنطلوني وقميصي ووقفت مستحكما امام باب الغرفة التي اختبأت فيها يعاد . واستللت بطاقة تدل على نسبي الى اتحاد عمال فلسطين ، واستعذت بالادون سفسارشك ، فكفوا عن النبش والكش .
الا ان الذي بدا رئيسا عليهم شك في امر الغرفة التي وقفت امام بابها المغلق . فأزاحني عنه ليفتحه .. فتسمرت في مكاني . فصاح : افتح ! فقلت : لا شيء هناك . فثار غضبه وتقدم نحو الباب . فمددت ذراعي على طولهما وقد قررت ان استشهد . فنظر وراءه الى جماعته وضحك . فلم يضحكوا . فأمرهم ان ينقضوا علي . فترددوا . فزعق . فانقضوا دفعة واحدة . وجرجروني حتى اخرجوني خارجا . ثم دحلوني على الدرجات من الطابق الثالث . فظلت الايدي تتقاذفني وانا مدحول حتى وجدتني في فناء الدرج تحت اقدام يعقوب ويدي متشبثة ببطاقة اتحاد عمال فلسطين ، وانا امدها ، متمددا ، نحو عينيه ، فلا تبلغهما .

ولكنني لم افعل .

فقد سمعنا ، من فوق ، صراخا انثويا ، وصوت لطمات ، وركل ، وجلبة . وتطلعنا الى فوق فاذا بمعركة حامية تدور بين يعاد وبضعة عساكر ، كانوا يقذفون بها على الدرج الى اسفل . ووقف عساكر آخرون وهم يحاولون الا يروا ما يحدث . وهي تقاوم وتصرخ وتركل بقدميها . وعضت كتف احدهم فصاح من الالم وولى بعيدا . وظلوا يدفعونها وهي تقاومهم وتركلهم حتى القوا بها في فناء الدرج ، فهبطت على قدميها منتصبة القامة ورأسها في السماء .

وقال احدهم وهو يلهث : متسللة . فصرخت : هذه بلدي ، داري ، وهذا زوجي !

فلفظ يعقوب شتيمة ذات خمسة احرف .
فنسبتها الى امه .

فتكاثروا عليها . ودفعوها امامهم الى سيارة كانت امتلأت بالخلق من امثالها ، وذهبوا .

وسمعتها ، والسيارة تتحرك،تنادي بأعلى صوتها : سعيد، يا سعيد ، لا يهمك ، فانني عائدة !

وكنت ، بعد ، متمددا .

— ٢٠ —

الجرح المفتوح

وبقيت عشرين عاما انتظر عودتها . فقد اخذوها مع غيرها من المتسللين الى حيفا ، من الناصرة ومن المجيدل ومن يافة ومن معلول ومن شفاعمرو ومن عبلين ومن طمرة ، وكل عامل تسلل الى حيفا ليطعم عياله ، والقوا بها في سهل جنين بين الغام الانجليز والعرب واليهود .

وبعضهم اختبأ بين الخرائب ، وبين الاعواد ، ولم يصل الى الخطوط الاردنية . بل انتظر حتى اعتمت ونام النهار ، فعاد ادراجه . فعادوا وطردوه . فعاد . فعادوا وطردوه . فعاد ، حتى يومنا هذا .

وبعضهم ظل يمشي حتى تلقاه العسكر الاردني بالشتائم . فظل يشتم حتى يومنا هذا .

وكانت يعاد بين الذين لم يعودوا . وواحد من المتسللين العائدين وضع في يدي ، خلسة ، ورقة . فاذا هي رسالة منها لم اقراها الا بعد ان وثقت من خلو المكان من الجهاز . وهي

الورقة السرية الوحيدة التي احتفظت بها طول هـذه الاعوام العشرين لكي اقنع نفسي بأنني قادر على تحدي الجهاز،ولانني اعتبرتها عقد زواج .

كتبت يعاد :

ارجو ممن يجد هذه الرسالة ان يوصلها الى زوجي سعيد ابي النحس المتشائل ، وادي النسناس ـ حيفا .

سعيد ، يا زوجي !

الوداع ، الوداع يا حبيبي. انني أنتظر الموت عبر الحدود. ولكنني اموت وانا مطمئنة على انك ستنقذ والدي من السجن. سلم على اختي ، واعتن بأولادها . الوداع ، الوداع يا حبيبي

زوجتك يعاد »

وعلمت انها لم تمت . فقررت ان لي زوجة في جنين ، او في مخيم لاجئين . فأخذت اهتم بجمع الشمل .
وكنت حريصا على الاستماع الى رسائل المفتربين الـى ذويهم من اذاعة عمان . ولكنني لم اقو ، ابدا ، على توجيـه تحية اليها في برنامج « سلام وتحية » الاسرائيلي وكان يستهل بأغنية فريد الاطرش : « احبابنا يا عين ، ما هم معانا . رحنا وراحوا عنا ، ما حدش منهم استنى . عيني يـا عيني » . فأمسح الدموع عن عيني في غفلة الجهاز ، حتى لم تبق اذاعة عربية الا اذاعت مثل هذا البرنامج . هذه تبدأه « راجعون ، راجعون » ، وتلك : « وسلامي لكم ، يا اهل الارض المحتلة ، يا منزرعين بمنازلكم ، قلبي معكم وسلامي لكم » واخـرى : « يا مرسال المراسيل عالدرب القريبة. خذ لي بدربك هالمنديل واعطيه لحبيبي » ، حتى اختلط الحابل بالنابـل ، فضاعت يعاد كليا .

فلما وقعت حرب الايام الستة ، وصار مرسال المراسيل يهتف : « نصر من الله وفتح قريب » ، لم اعد ابكي على يعاد بل على حالي ، وبدون اي خوف من الجهاز لان الجميع تجهز .

ذلك ان يعقوب رثى لحالي . فلحقني الى الساحة التي حشرونا فيها ، في الزاوية بين شارع الجبل وشارع عباس ، فأخرجني قبل ان يبدأ الفرز ، وقبل ان التقي راس الخيش . ولما حكيت له ما جرى لي مع يعاد لامني على انني لم اخبر العسكر بالحقيقة من اللحظة الاولى . ووعدني ان يتدبر الامر مع اولى الامر وان يجدوا يعاد « حتى ولو كانت في قطر » ، وان يعيدوها الي .

ـ بشرط واحد يا سعيد . وهو ان تكون ولدا طيبا .
ـ حاضر .
ـ وان تخدمنا بأمانة .
ـ حاضر .

وكل ذلك حرصا على مستقبل يعاد المسكينة ، التي وعد ان يعيدها الي .

وقال : بالطبع ، سيطول الامر بعض الوقت .

ولكنه طال طول الوقت .

وفي كل انتخابات جرت في هذه البلاد كان يقنعني بأنه ، حال الانتهاء من فرز الاصوات ، سيأخذني الى بوابة مندلباوم لاستقبال يعاد .

ـ فهات همتك !
فكنت لا انام ولااهدأ وانا الاحق الشيوعيين ، واحرض

عليهم ، وانظم الاعتداء عليهم ، واشهد ضدهم ، واندس في صفوف تظاهراتهم ، فأقلب صناديق القمامة في طريق التظاهرة ، واهتف بسقوط الدولة ، لتبرير اعتداء الشرطة عليهم . واوسوس في آذان الشيوخ انهم مزقوا القرآن الكريم في الاعظمية واجلس على صندوق الاقتراع من السادسة صباحا حتى منتصف الليل ، ولا انال اجرا على هذه الهمة سوى احياء الوعد بعودة يعاد .

اما بقية زملائي ، في الهمة ، فكانوا يترقون في المناصب المخصصة لنا . فالشلفاوي صار عضو كنيست . ونظمي الشاويش اصبح شاويشا . وعبد الفتاح داهن زقمه صار مدير مدرسة ، وزوجه مديرة مدرسة ، وابنته معلمة ، مع ان ابنه وقع في ايدي الشيوعيين فبعثوه يتعلم الطب في موسكو.

ما بقي بدون أجر غيري وغير يعقوب ، الذي اصبحت انا اجره . فلما دمجوا اتحاد عمال فلسطين في الهستدروت عينوه موظفا في الدائرة العربية ، وانا تحت يده .

ولم تنقذني الهمة التي ابديتها في الخدمة من غضب يعقوب ، الذي لم تنقذه من غضب الرجل الكبير ، ذي القامة القصيرة ، وهو الذي يضع على عينيه نظارة سوداء في الغرفة المعتمة المسدلة الستائر . فما ان تظهر نتيجة انتخابات حتى يستصحبني هائجا مائجا :

ــ راحت يعاد عليك . كيف سمحت للشيوعيين بأن ينالوا كل هذه الاصوات ؟

ــ انا ؟!

ــ يا الله ! خيرها بغيرها .

وعلى الرغم من كل افعالي ظللت أشعر براحة الضمير ، انني انشد التقاء يعاد ، حتى تزوجت فصار السر الذي بيني وبين يعقوب ، ان نعيد يعاد ، يؤرقني كما لو انه الخيانة الزوجية .

فأخذ يعقوب يضغط بكل ثقله على هذا الجرح ..



الكتاب الثاني

باقية

صدرت في اواخر ١٩٧٢

كمـــا تحب الام

طفلهـــا المشوهـــا

احبهـــا

حبيبتي بـــلادي

سالم جبران

– ١ –

كيف اضطر سعيد الى الامساك عن الكتابة لاسباب امنية

كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال : سلام عليك ورحمة الله وبركاته .

اما بعد ، فأمسكت عن الكتابة اليك زمنا شحيحا لاسباب امنية ، امني ، هذه المرة ، لا امن الدولة ، وامن اخوتي الفضائيين الذين اقيم في كنفهم ، في دياميس عكا ، آمنا غير مطمئن .

فلما جعلت حكومتكم ترمم الدياميس وتقيم جدرانها ، وتضيئها بالكهرباء ، وتكشف عن باحاتها ، وعن زخارفها ، وتزخرفها ،

جعلنا ننسحب الى الدياميس غير المنظورة . لا نتوقف في مكان واحد ، ولا نخلوا الى انفسنا لحظة واحدة ، كقولك : اضرب واهرب ، كل واهرب ، اكتب واهرب . وهذا غير متيسر .

حتى ادبر الصيف ، وخفت الرجل ، وانقطع اللفط سوى

ن دعاء ضفدع ومن نجوى صرصار .

فدعاني اخي الفضائي فقال : هلم نخرج الى البحر .

فخرجنا . فاقتعدنا صخرة بعلبكية ملساء ، على هودج في السور الى يسار المنارة . وارسلنا خيوطنا نصطاد سمكا .

وكنا في شهر اكتوبر . والنسمة شرقية دافئة . والبحر رائق المزاج تتناثر اضواء النجوم على صفحته الهادئة . ونظرنا امامنا فاذا حيفا المتوهجة اصبحت حيفاءين : حيفا المتكئة على مسند الكرمل ، وحيفا المستحمة في البحر ، متجردة من اقراطها وعقودها وخواتمها .

فأرى الى البحر الجبار ، وقد هدأ ، كيف يبدو اشد جبروتا . فالجبار المطمئن اشد جبروتا . والبحر الهادىء هو الجبار المطمئن .

وكم من روح مضطربة ، مثل روحي ، التجأت الى البحر تستمد منه هذا الاطمئنان .

فلما تكاثرت ليالي حزيران على العرب ، تكاثر صيادو السمك الهواة منهم . فقيل : يهربون من هموم ازواجهم .

وكانوا ، بالحق ، يبحثون في البحر عما يقنعهم بأن ثمة ما هو اقوى من دولتنا .

ورب ليلة دهمتهم الشرطة فيها ، وهم قيام على صخور الشاطىء في نهاريا ، حيث يبلع البحر بالوعاتها ، فيخصب بأشتات السمك ، وقد استخفهم اطمئنان البحر ، فاستخفوا بأسئلة العسس ، فباتوا بقية ليلتهم في سجن .

اما انا فحملتني هذه الهواية سرا عجيبا اصبح هويتي . ولولا لجوئي الى اخوتي الفضائيين ، في دياميس عكا ، حيث لا ينالني شركم ، لحملته معي الى القبر .

فاتذكر سري ، واقول : ان في هذه الجهات لسرا عجيبا !

فيجيبني صاحبي الفضائي : سبقك الى هذا القول ابن جبير الرحالة* . وكان قعد على هذا الشاطىء مترقبا هدوء البحر ليفر من عكا ، التي مومسها الروم . فكتب يقول :

« وفي مهب الريح ، بهذه الجهات ، سر عجيب . وذلك ان الريح الشرقية لا تهب فيها الا في فصلي الربيع والخريف . والسفر لا يكون الا فيهما . والتجار لا ينزلون الى عكة بالبضائع الا في هذين الفصلين .. والسفر في الفصل الربيعي من نصف ابريل . وفيه تتحرك الريح الشرقية وتطول مدتها الى آخر شهر مايه ، واكثر واقل بحسب ما يقضي الله تعالى به . والسفر في الفصل الخريفي من نصف اكتوبر . وفيه تتحرك الريح الشرقية . ومدتها اقصر من المدة الربيعية . وانما هي عندهم خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوما واكثر واقل . وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيه تختلف . والريح الغربية اكثرها دواما . فالمسافرون الى المغرب والى صقلية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقية في هذين الفصلين انتظار وعد صادق . فسبحان المبدع في حكمته ، المعجز في قدرته ، لا اله سواه » .

فأسبح بحمده . واذكر انه في هذه الخلسة من الزمان ، من كل عام ، يخرج صيادو عكا العرب الى عرض البحر

---

* زار عكا في عام ١١٥٨ م.

بمراكبهم الصغيرة ليصطادوا سمك البلاميدا الكبير ، جرا .
وهو سمك اجنبي لا تحسن العربيات طهوه .

فيقول صاحبي : هذا البحر يهدأ في الربيع وفي الخريف .
وهما احسن الفصول في بلادكم الحسناء حتى تكاثر العشاق
عليها ، طبقات طبقات ، فلم يبق من العلوم ما يصلح لدراسة
تاريخها سوى الارخيولوجي في استقراء آثارها الدارسة .

فأقول : في الربيع التقيت الطنطورية . وفي الخريف ضيعت
ابنها . وحياتي بينهما خلسة من الزمان .

– ٢ –

الشبه الفريد بين كنديد وسعيد

فينتبه صاحبي الفضائي على ازيز طائرات نفاثة تروح وتغدو فوق البحر ، شمالا الى راس الناقورة ثم تغدو فتختفي وراء الجبل فأحسب ان سمكة مذعورة شدت في خيطه . فأشد في خيطي شدا خفيفا . فيهدىء من روعي .

ويقول : تذكرت ما اتاني من تقول اصحاب صاحبك على ما نشره من رسالتك الاولى أليه وقولهم : احتفز الاستاذ ليثب فوقع دون كنديد* الى الوراء مئتي عام !

فأقول :

ما شأنه وهو رسول ؟ فما على الرسول الا البلاغ !

فيقول :

كنديد متفائل ، اما انت فمتشائل .

---

* **كنديد ـ او التفاؤل ـ قصة فولتير الشهيرة التي نشرها عام ١٧٥٩ .**

فأقول :
هذه نعمة خص بها قومي من دون بقية الاقوام .
فيقول :
ان في الامر لمحاكاة .
فأقول :

لا تلمني ، بل لم هذه الحياة التي لم تتبدل ، منذ ذلك الحين ، سوى ان « الدورادو »* قد ظهرت فعلا على هذا الكوكب .
فيقول :
افصح .

فأفصح بالمقارنة بيننا وبين كنديد كما يلي بالتمام وبالكمال ، لا اسقط سوى ما تكرر ، عاما عاما ، على مدى ربع القرن ، واقول :

ألم يعز بنغلوس* نساء « الآبار » على ما فعله بهن عسكر « البلغار » ، من اغتصاب ومن بقر بطون ومن قطع رؤوس ومن هدم قصور ، بقوله :
« غير انه انتقم لنا . فقد اصاب الآبار بمثل ذلك السوء بارونية مجاورة يملكها سنيور بلغاري » ؟

فبمثل هذه التعزية تعزينا نحن ، بعد مئتي عام . وذلك في ايلول من عام ١٩٧٢ يوم ان قتل رياضيونا في ميونيخ . الم ينتقم لنا طيراننا الحربي بقتل النساء والاطفال ، المبتدئين في رياضة الحياة في مخيمات اللاجئين في سوريا ولبنان، فتعزينا؟

---

* **الدورادو ــ فى رواية كنديد ــ هي البلد الخيالي الوحيد الذي ساده العدل حيث «كان البلد مزروعا عن بهجة ، كما كان مزروعا عن حاجة . وكان النافع فى كل مكان مقترنا بالمتع » .**
* **بنغلوس من شخصيات « كنديد » .**

وفي اليوم التاسع والعشرين من الشهر الذي جاء بعد ايلول ، في اكتوبر الخلسة ، ولما عادت طائراتنا من ضرب مخيمات اللاجئين في سوريا ضربا موفقا ، ألم يجتمع الوزير بنفلوس* بأرامل رياضيينا المغدورين ويعزيهم بأن طائراتنا اصابت الهدف اصابات محكمة وفعلت فعلا عظيما ؟

وحتى لما كانت هذه الدولة لا تزال تحبو ، وتطلع على العالم بريئة براءة الاطفال ، في اوائل تموز من عام ١٩٥٠ ألم يردد كاتبنا المشهور **جون كمحي** ، في « جروسليم بوست » ، حكمة بنفلوس هذا فكتب :

« لقد شن العرب حربا دامية على اليهود . فهزموا في هذه الحرب . فلا يحق لهم ، اذن ، ان يتذمروا حين يطلب منهم دفع ثمن الهزيمة التي نزلت بهم » :

وكنديد : « يعن له ، في يوم من ايام الربيع ، ان يتنزه وان يمضي قدما معتقدا ان استخدام الانسان لساقيه ، كما يروقه ، هو امتياز للنوع البشري ، كما هو امتياز للنوع الحيواني . ولم يكد يسير فرسخين حتى ادركه اربعة ابطال طول الواحد منهم ست اقدام . فأوثقوه . واتوا به الى سجن مظلم » .

فلما استخدم هذا الامتياز البشري ، والحيواني ، بضعة اولاد من قرية الطيبة ، يتراوحون في العمر بين تسع سنين واثنتي عشرة سنة ، فمضوا قدما الى مدينة نتانيا ليروا البحر بالعيون بعد ان سمعوا هدير موجه بالآذان . القي القبض عليهم . فاقتيدوا الى محكمة عسكرية . فأوقع حاكم المحكمة العسكرية على هؤلاء الاولاد عقوبة الغرامة . فمن عجز عنها فيما يملكه

---

* **الاشارة الى اجتماع وزير المعارف والثقافة ، الون ، بارامل قتلى ميونيخ.**

حتى الطفل ، وهو الحياة ، شهرا في السجن . ولما عجز احد الاولاد عن دفع الغرامة ، فافتداه والده بحياته شهرا في السجن ، ابى الحاكم الا ان يزيد على سنن الطبيعة شهرا واحدا ، فأمر ان تفتديه والدة الولد بشهر عاشر من حياتها بعد شهور الحمل التسعة* .

وما زال هذا الامتياز البشري مرهونا باذن الحاكم حتى يومنا هذا .

وفي قصة كنديد ، لما استولى القرصان على سفينتهم في عرض البحر ، فأخذوا يفتشون الرجال والنساء ، روت امرأة عجوز ما نزل بها من تفتيش ، فقالت : « ويعرون من فورهم كالقرود .. ومن الامور التي تثير العجب سرعة تعرية هؤلاء السادة للناس . ولكن اكثر ما ادهشني هو ادخالهم اصبعا الى مكان فينا جميعا لم نكن ، نحن النساء ، لندع شيئا يدس فيه غير انابيب الحقنة .. وهذه عادة استقرت ، منذ زمن لا يعرف اوله ، بين الامم المتمدنة التي تجول على البحر . وقد علمت ان هذا لا يفوت فرسان مالطا المتدينين مطلقا ، حين يأسرون تركا وتركيات . فهذا قانون دولي لم تخالف أحكامه قط »* .

فحتى يومنا هذا تطبق حكومتنا هذا القانون الدولي على الترك والتركيات من العرب ، جوا وبحرا وبرا ــ في مطار اللد ، وفي ميناء حيفا ، وفوق الجسور المفتوحة . فصار الترك والتركيات ، حين يزمعون امرهم على السفر ، يتناظفون جيوبا وحقائب وثيابا ، ظاهره وباطنه . والتركية ، حين

---

* جرت هذه المحكمة في شهر ايار من عام ١٩٥٢ .

* الفقرات المأخوذة من كتاب « كنديد » هي من ترجمة كنديد العربية بقلم المرحوم عادل زعيتر ــ طبعة دار المعارف بمصر .

ترغب في ان تضبع الشرطية، ترتدي افخر الباطنيات النايلونية حتى تتأدب الشرطية حسدا .

فيضحك صاحبي الفضائي ثم يقول مستريحا : فهل تقوّل اصحاب صاحبك عليه ، بأنه قلد كنديد ، يعود الى انهم ، حين كانوا يعرونهم ، كانوا يدخلون اصابعهم هناك ؟

فأقول : ان الامر ، يا سيدي ، مختلف جدا ، فبنغلوس كان يعزي نساء شعبه المبقورات البطون بأن عسكر شعبه قد فعل مثل هذه الفعلة بنساء الاعداء . أما عرب اسرائيل فهم ضحية العسكرين ، عسكر الآبار وعسكر البلغار .

ــ هات مثلا . .

ــ قرية برطعة ، في المثلث ، المقطعة ، مثل الطفل في محكمة سيدنا سليمان عليه السلام ، الى نصفين ، نصف أردني ونصف اسرائيلي .

ــ الطفل في محكمة سيدنا سليمان ، عليه السلام ، ظل سليما ورفضت والدته الحقيقية اقتسامه .

ــ اما برطعة فاقتسموها وظلت سليمة. فلما سطا لصوص على قطيع بقر اردني ، تعداده عشرة رؤوس ، فمر الاثر بقرية برطعة ، حملت الحكومة الاردنية على القرية حملة محمولة على ظهور الخيل . فجمع الفرسان الاهالي . وطرحوهم ارضا . واشبعوهم ضربا ورفسا حتى قام الاهالي واشبعوا الفرسان، كل فارس دجاجتين ، والخيل ، كل فرس علفها . وبرطعوا في برطعة . فسميت برطعة . فلما عادوا ادراجهم ، حمل جند بنغلوس على القرية وانتشروا يبحثون عن المتعاونين مع الغزاة الاردنيين .

فاذا وجدوا قرويا لم يطرحه الفرسان الاردنيون ارضا واكتفوا بلكمه ، ثبتت تهمة التعاون مع العدو عليه . فاذا كانوا طرحوه ارضا واكتفوا برفسه ، فهو متعاون . فاذا ضربوه ولكموه ورفسوه ولم يطرحوه ارضا فهو متعاون ، الخ* .

وانهي هذه المقارنة العجيبة بيننا وبين كنديد ، فأقول :

كنديد ، يا سيدي ، كان يقول : « كل شيء في هذا العالم حسن لا ريب فيه . وذلك مع الاعتراف بامكان الانين قليلا مما يحدث في عالمنا روحا وبدنا » . اما انا فحتى الانين لم يكن متيسرا لي .

فيقول صاحبي الفضائي : افصح !

فأفصح واقول :

---

* حادث اعتداء الفرسان على قرية برطعة وقع فى ٢١ نوفمبر سنة ١٩٥٠ .

- ٣ -

كيف تحول سعيد الى هــرة تموء

عشت في الدار الخارجة ، خارج الدياميس ، عشرين عاما وانا اريد ان اتنفس فأعجز ، كالغريق ، عـن التنفس . ولكنني لا اموت . واريد ان انطلق فأعجز ، كالسجين ، عن الانطلاق . ولكنني ابقى حرا .

وكم من مرة هتفت بمن حولي : يا قوم ، ان فوق كتفي لسرا خطيرا انوء بحمله ، فأعينوني ! فما خرج مـن تحت شاربي سوى مواء الهرة .

حتى آمنت بحلول الارواح .

تصور روحك ، بعد موتك ، حلت في هرة . فبعثت هذه الهرة لتسيب في فناء بيتك . فخرج ابنك ، حبيبك ، يتلهى بما يتلهى به الصبيان من اللعب . فناديته ، فموّت . فزجرك . فناديته طويلا ، فموّت طويلا . فرماك بحجر . فذهبت في حال سبيلك وحالك كحـال الفتى العربي في شعب بـوان :

غريب الوجه واليدواللسان »* .
هكذا حالي:عشرين عاما اهر واموء حتى اصبح هذا الحلول يقينا في خاطري . فاذا رايت هرة توسوست : لعلها والدتي ، رحمها الله ! فأهش لها وابش . وكنا نتماوأ احيانا .

فهتف صاحبي الفضائي وقد انبسط صدره : على رسلك يا ابن النحس ! اراك تأهلت للانتقال الى المرتبة التاسعة من الدعوة* .

قال : كان اسلافنا ، من اخوان الصفاء وخلان الوفاء ، شبهوا الخلق من امثالك بالبهائم العجمية . فلجموا كما تلجم البهائم بلجم الحديد الثقال ، والارسان لتقاد حيثما قيدت ، وتمتنع عن الكلام بما ارادت . حتى باذن ربها بانتباه نائمها ، وبقيام قائمها ، وبظهور الناطق . فيفك البهائم الاسيرة ، والاشخاص الذليلة ، من اسر العبودية وقيد الملكة ورق الذل ، ويجعل الذين اهانوهم في مثل ما كانوا فيه ، جزاء ما كانوا يعملون .

فهتفت به : فأنطقني !
قال : عد الى الكتابة الى صاحبك .
قلت : اخرجني الى الناس وكأنني خارج عن الناس .
قال : وهل الذي إستشعر* منهم بمختلف كثيرا عنك ، اما

---

* الاشارة الى قصيدة المتنبي :
« مغاني الشعب طيبا في المغاني
بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها
غريب الوجه واليد واللسان »
* الاشارة الى مراتب الدعوة الاسماعيلية التسع .
* أي اصبح شاعرا .

نت فتقمصت هرة . واما هو فتقمص شاعرا . وكلاكما يهرب حتى يتنفس ، ويختنق حتى لا يموت . ومنهم من احترف الادب عجزا . ومنهم من هرب من موقفه بتغيير موقعه .

وآخرون اخفوا عورة العجز بورقة الحكمة . وآخـــرون بالفلسـفة ، وبأن الزمان حاملهم لا محالة على العقرب القصير ، ان لم يكن حاملهم على العقرب الطويل ، الى قيام الساعـــة ، وبأن الشعب غير مؤهل لغير ذلك ، وبما الى ذلك مـــن علل العليل .

ما هكذا فعل قائدنا ، ابو ركوة* ، قبل الف عام . فلمـــا راى الناس يؤمنون بأن الحاكم بأمر الله يحكم بأمر الله ، لـــم يسقط في يده ، ولم ينتظر ان يصبح الشعب مؤهلا ، بـــل اقنعهم بأنه ثائر عليه ، هو ايضا ، بأمر الله . فتلقب بالثـــائر بأمر الله على الحاكم بأمر الله . فحيد العزة بالعزة . والحاكم اظلم . فتبعه خلق كثير . وكنا بينهم .

قلت : وسري الدفين ؟

قال : فجد به .

وها انا فاعل .

---

* ابو ركوة ـ هو الوليد بن هشام بن المغيرة . ثار على الحاكم بامر الله في مصر (٩٩٦ ـ ١٠٢١ م) ، ولقب نفسه بالثائر بامر الله . ولقب بابي ركوة لانه كان يحمل ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية .

— ٤ —

كيف سبقت العروبــة الاصيلة ، بالتشمير ، عصر التشمير

في الربيع التقيت الطنطورية . وما هذا هو اسمها ، بل نسبة الى قرية الطنطورة ، على شاطىء البحر ، حيث سقط راسها قبل ان يسقط مسقطه بثلاثة عشر عاما .

وكان الرحيل دهمها وهي في زيارة اخوالها ، في قرية اسمها جسر الزرقاء ، على شاطىء البحر ايضا . فبقيت فيها حتى تشاطرني الهموم واشاطرها ردحا من الزمن .

وامر هذه القرية ، جسر الزرقــاء ، امر عجيب . فكيف صمدت هذه القرية لدواهي الحرب والترحيل ، مع اختهــا فريديس ــ الفردوس ــ المجاورة ، لما قبض الريح بقية القرى العربية على الســاحل ، ما بين حيفا وتل ابيب ــ الطيرة واجزم وعين غزال والطنطورة وعين حوض وام الزينات ، وهي اعمق منها جذرا ، واصلب عودا ؟

اما فريــديس ــ الفردوس ــ فبقيت لحاجــة في نفس يعقوب . وهو غير معلمي يعقوب من اتحاد عمال فلسطين . بل

جيمس (يعقوب) دي روتشلد ، الذي اقام بحلالة مستوطنة « زخرون يعقوب » ـ لذكرى يعقوب ـ في اواخر القـرن التاسع عشر . فانصرف اهلوها القادمون من اوزوبا ، الى صناعة النبيذ الجيد ، فتضعه مصايف العروبة ، وقد تعددت اسماؤه ، على موائد امراء الجزيرة ، من الربع الخالي ، عبر الجسور المفتوحة ، فيستذوقونه ، فينشد منشدهم :

« يا بشر ما لي للسيف والحرب
وان نجمـي للهـو والطـرب
لو كـان قصف وشرب صافيـة
مع كل خـود تختـال في السلب
والنـوم عنـد الفتاة ارشفها
وجـدتني ثم فـارس العرب »*

ثم ينتشي منتشيهم صائحا يتهم كل مطالب بتنفيذ قرارات مجلس الامن بأنه خائن العروبة !

اما الفرادسة فقد انقذهم عصر الكرمة ، في دنان يعقوب ، من اعاصير الحروب . والحق يقال عن اهالي زخرون يعقوب ان الربح الوفير ، الذي جنوه من سواعد الفرادسة وسيقانهم، شد من سواعدهم حين حمل عليهم اخوانهم الصهيونيون ، من ذوي العمل العبري النقي ، التقي ، الصافي صفاء خمرة تلك الدنان ، حتى ضحكوا ، بصفاء نية ، من الحكاية التالية التي انتشرت عنهم وحدثني بها معلمي يعقوب ، بصفاء نية :

ان آباء زخرون يعقوب اختلفوا يوما :

هل من الحق ، شرعا ، ان يعاشر الرجل زوجه في السبت،

---

* **من قصيدة لابي نواس .**

ام ان الامر عمل ؛ مثله مثل بقيــة الاعمال التي لا تجــوز في السبت ، شرعا ، فذهبوا الى الحاخام ليقضي بينهم ، هــل الامر عمل ام لذة . ففكر الحكم طويلا ، ثم حكم انه لذة . فهات برهانك ؟ قال : لو حكمت بانــه عمل لاعطيتموه العــرب ــ الفرادسة !

فضحكنا ، يعقوب لانه يكره الاشكناز ، وانا لانه ضحك .
ومن التجني ان تلوموا ابناء الفردوس ــ فريديس ــ على انهم حافظوا عليه فضلة دنان .

فمن شيد المباني الشاهقة في هذه البلاد ، وشق طرقهــا العريضة ، وزفتها ، واحكم الاستحكامات ، وحفر الملاجىء ؟
ومن زرع القطن ، ثم جناه ، ثم حلجه ، ثم نسجه أثوابا يتيه فيها سادة رغدان وبسمان،فقيل ان الاتحاد الوطني سيخيط منها لباسه الموحد ، فيتساوى اعضاؤه ، كأسنان المشط ، لا فضل لعربي على اعجمي الا بملوكهم وبتقبع الكوفية ، رمز العروبية ، حتى اذا فارت دماؤها في عروقهم ، تلثموا بها غب الشهادة ، فاذا انفجرت دماؤها في عروقهــم اقعوا يرغــون ويزبدون بالحياة الافضل،حتى اذا تأججت دماؤها في عروقهم لعنوا المستوردات الاجنبية سوى الملكية والكوفية والطيارة والخمارة والصورة والوقوف للصورة ولثم اليد وولي العهد و « تمتع الغني بما جاع به فقــير »* ، في الاسرة الواحــدة الاسير ، وقهر العمال والاستغلال ، وقطع الرزق ، والفسق ، في عصر التشمير ، وكان العرب سبقوا اليه حين قالوا : شمر للحرب وشمر للسلم وشمر للعمل وشمر للصلاة ، ولم يقولوا: تقبع او تسربل او تكوكف او تلثم او ولول : عاش الملك !

من شيد المباني وشق الطرق وحرث الارض وزرعها ، في

---

* لعلي بن ابي طالب : « ما متع غني الا بما جاع به فقير » .

اسرائيل ، غير العرب الباقية في اسرائيل ، فالعرب الباقيــة ، صبرا ، فيما احتلتـــه دولتنا من ارض لم يجد لها احمــد الشقيري متسعا في ملفات خطبه الرنانة ؟

ولقد رأيتهم ، في ساحة العجمي بيافا ، شبابا في عمر التمر ، من غزة وجباليا وبيت لاهية وبيت حنون ودير البلح وخان يونس ورفح،يتمايلون على سيارة السيد المقاول كتمايل شواهد القبور فوق اخوتهم الشهداء في مقابر غزة* ، فآمنت بأن الاحياء يستطيعون هم ايضا ، ان يبقوا في وطنهم !

ورأيتهم في ساحة باريس (ساحة الحناطير ، فالخمرة في الزمان الاول) ، في حيفا التحتا ، شبانا في عمر نوارة اللـــوز والمشمش اللوزي والتفاح ابي الخد الاحمر ، من قلقيليــة وطولكرم وجنين وطوباس والسيلة واللبن ، ينتظرون سيارة المقاول ، فيتحسس سواعدهم ويــروح النظر في قاماتهــم المشوقة ، فيمتطي منهم من اشتد ساعده وقست ساقه . فاستعدت حالنا قبل عشرين عاما . فآمنت بأن هذا الشعب لا يفنى !

ورأيتهم ، في المغيب ، يحشرون في سيارات النقل العتيقة، كما حشروا ، في يومهم ، صناديق البطاطا ، وكوموا الشمندر في سيارات احدث من السيارات التي ينقلون فيها ، عائدين الى مدنهم وقراهم ، الا الذين غض السيد المقاول الطرف عنهم ليبيتوا ليلتهم في بناء لم يتموا بناءه ، يتسترون بالطوب مــن الطارقين : برد ما قبل الفجر ، ودهمه الشرطة ما قبل الفجر .

---

* الاشارة الى ما انتشر من يقين فى غزة وفى بقية انحاء المناطق المحتلة ، فى اواخر ايلول عام ١٩٧٢ ، عن تحرك الشواهد فوق قبور الشبان الاربعة ، فى مقبرة حي الشجاعية فى غزة ، مصطفى عبد القادر وحسين سليمان وعون سعيد ونوفل شمالي ، الذين صرعهم رصاص الاحتلال .

حتى اذا تفتحت اكمام الفجر شمروا عن اكمامهم وتفتحوا على الحياة تفتح الياسمين . فتذكرت حالنا قبل عشرين عاما، وكيف كان معلمي يعقوب يخبرني ان تضيع الطنطورية علي ، كما ضاعت من قبل يماد ، او ان اهب مع الفجر ، فأنطلق الى هؤلاء ، الواقعين في براثن المقاول ، فأنقذهم من براثن الشيوعيين « كما انقذت عجائز النصارى لحية الخوري من المعط وهو قائم فوق المحراب يصلي »* .

فآمنت ، يا محترم ، بأن الامر مكتوب علينا ، فلا بد مما ليس منه بد . او كما جاء في الاغنية الايطالية التي ترجمتها شعرا :

مشيناها خطا كتبت علينا
ومن كتبت عليه خطا مشاها !

اما اهل القرية ، جسر الزرقاء ، وهم اخوال صاحبتي الطنطورية ، فلم يمشوا اية خطوة ، ولم يخرجوا ابدا من قريتهم المنسية . وهذا سر بقائهم فيها . فلم تدر مذراة الرحيل الاول بوجودهم . فظلوا يصطادون صفار السمك في مصب النهر ، آمنين ، سوى الطنطورية .

---

* الاشارة الى الحرمان الذي فرضه الفاتيكان ، في اوائل الخمسينيات ، على الشيوعيين ، فانتشرت شائعة في حيفا ان الشيوعيين قرروا معط لحية الخوري ولذلك حرمتهم الكنيسة !

— ٥ —

كيف كانت التماسيح تعيش في نهر الزرقاء

ففي اوائل الخمسينيات ، لما اتيتهم اصطاد السمك بين الصخور المشرئبة بعيدا في عرض البحر على مصب نهر الزرقاء ، الذي كانت تعيش التماسيح فيه فسماه اخواننا اليهود باسمها ، نهر التنين ، وهي التماسيح ، مع ان شيئا لا يعيش فيه الآن غير البوري الصغير وافاعي النهر ،

رأيتهم ينزلون عراة الى مصب النهر قبل ان تنزل الشمس في مغرب البحر ، فتية وفتيات سمرا ، اجسامهم برونزية وابنوسية ، ضامرة من غير صناعة ، فينتظمون صفوفا متوازية على عرض المصب . فيتقدمون صوب البحر وايديهم في الماء يخرجونها ، بين الحين والحين ، تمسك بأسماك تتلوى. فيقذفونها نحو الشاطىء . فيتناولها نسوة يأسرنها في اكياس اعدت لهذا الغرض ،

سوى صاحبتي الطنطورية ، شقراء مثل روميات بيزنطية ، فكانت تنتحي مكانا قصيا .

فتقف لوحدها تراقب هذا الصيد العجيب ولا تشترك فيه الا بنظرات رانية تفيض بالحياة،وبشفتين تسجلان،برعشات الابتسامات الحيية ، رعشات السمك وهو يقذف نحو الشاطىء .

وكانت في عمر الفتيان والفتيات ، اربعة عشر عاما او خمسة عشر عاما : جديدة جدة الفجر في هذه النواحي ، الا انها اختلفت عنهم في عزلتها ، وفي لون بشرتها الابيض المشوب بالصفرة .

ولما كنت اعلم ان الاولاد الاخرين هم ذرية المصريين من الوجه القبلي ، الذين حملهم ابراهيم باشا معه الى فلسطين ، فأقاموا في جسر الزرقاء وفي غيرها من قرى هذا الساحل،قلت في نفسي : لعل هذه الصبية الشقراء المنفردة ، هي من اصل جارية رومية ، فتربطنا صلة القربى في اصل شجرة واحدة ؟ فأخذت اراقبها لمآرب تاريخية ولمآرب اخرى .

فلما نبهها وجودي ، ففضت الطرف ، فانعكست حمرة الشفق على صفحة وجهها الطبيعي ، فكشفت عن عينيها اجفان الخجل ، فرأيت الحيرة والدهشة وقبلة الحياة ترقص فيهما دبكة شمالية ، ايقنت انني هالك الساعة !

استعيد هذه الذكريات ، الان يا محترم ، وقد اقفر قلبي من هذا العرس . لم تبق الطنطورة ، ولم تبق الطنطورية . اما قوم جسر الزرقاء فقد ارتدوا ثيابهم ولحقوا،في العمل البري، جيرانهم الفرادسة . ولم يعد ينزل منهم الى النهر او يقف على لسان البحر ، سوى فتيان هاربين من مدرسة او شيوخ هاربين من بقية حياة . ولولا الحركة المباركة ، التي قامت بها جمعية الرفق بالطبيعة ، فحالت دون السلطة واقامة المحطة الكهربائية ، التي أزمعوا اقامتها على مصب النهر ، لما بقي اسمي ــ سعيد ــ محفورا على كتف الصخرة الجيرية التي كانت الطنطورية تتكىء عليها ونحن نخيط ، بالعيون ، وشائج المستقبل .

- ٦ -

باقية ــ التي اشركته في سرها قبل ان تصبح شريكة حياتـــــه

ففيما انا عائد ، في احدى الاماسي ، وقد اقفر المكان ؛ اتكأت على هذه الصخرة ، فرايت اسمي محفورا على كتفها . فأدركت ان هذه الصبية اشجع مـــن هذا الصبي ، وانهـــا استدرجت اقرانها ، الذين كنت اوزع صنارات الصيد عليهم درءا لشرهم ، حتى اخبروها باسمي .

فعلمت انها تحبني . فأحببتها . وقديما علمت بأنني واقع لا محالة ، في حب التي تحبني . وليتني ادركت منـــذ تلك اللحظة ، ان شجاعتها غير مألوفة . ولكنني كنت غريقا على كتف الصخرة الجيرية .

فأغدقت الصنارات وخيوط النايلون على صبي كان يلبي طلبي فينزل الى البحر يفك صنارتي من صخرة علقت بهـــا . فسألته :

ما امر هذه الصبية فلا تشارككم صيدكم ولهوكم ؟
قال : « الطنطورية » ؟

ثم حدثني بما يعرفه عنها . فاذا هم لا يعرفون لها اسمـا سوى الطنطورية ، لانها من الطنطورة . وقال : انها كانت في زيارة اخوالها في جسر الزرقاء حين سقطت الطنطورة ورحل اهلها . فبقيت في جسر الزرقاء .

وقال : هي مدنية ، وتتكبر علينا .

وقال : امرها عجيب . فهي اما انهـا تبتسم واما انهـا تبكي . فأصبحنا نخافها ، ونتحاشاها . غريبة وتقرأ كتبـا وتبتسم لوحدها وتبكي لوحدها .

فلما طلبت منه ان يسأل عن اسمها وعن اخوالها وان يعود، في الاسبوع القادم ، فيخبرني ، عاد مـع اقرانه واخـذوا يرجمونني بالحجـارة . ولم تعـد الطنطورية تتكيء عـلى على صخرتها . ولم اعد اجرؤ على زيارة ذلك الشاطيء .

فاحتبست في غرفتي ، في اتحاد عمال فلسطين ، مهموما : هل ستضيع الطنطورية علي كما ضـعت يعاد ؟..

فاذا بمعلمي يعقوب يهرول ويصرخ : ما كنت تفعل في جسر الزرقاء ؟

قلت : اتبع هوايتي بصيد السمك .

قال : فما يعتيك من بنات البلد ؟

قلت : لم اكن اعرف انها شيوعية !

فانفجر يعقوب بالضحك ، فانفجرت معه بالضحك .

وقال انه يضحك من سذاجتي . فلا خطر من ظهور اي شيوعي في هذه القرية ما دام اهلها معزولين بالرمل وبعتمة الليل وبخيوط العنكبوت .

ـ خيوط العنكبوت ؟

ـ انهم حمولة واحدة ، تنتشر فيهم اواصر القربى انتشار خيوط العنكبوت .
ـ والطنطورية ؟

فاخبرني بما كنت اعرفه عن اصلها . واضاف الى ذلك ان اخوالها «من جماعتنا» مع ان اسمها الحقيقي هو «باقية». وقال : هذا هو الضد وضده .. ولكنها طفلة .

ووعدني بأن يدبر لي امرها اذا استيقظت قبل الفجر وقمت الى عمال القرى ، الذين يبيتون في خرائب حيفا ، فأيقظتهم ، قبل الفجر ، على خطر الشيوعيين . فوعدته خيرا. واخذت ابيت معهم ، فيتركونني اغط بالنوم ويسعون في طلب الرزق .

حتى وقعت انتخابات الكنيست الثانية ، في تموز عام ١٩٥١ ، فاذا بالشيوعيين ينالون ستة عشر صوتا في جسر الزرقاء . فاقبل علي يعقوب ، هاشا باشا ، وهو يهتف : البشارة ، البشارة. لقد قرر الرجل الكبير (ذو القامة القصيرة) ان يصوبك نحو جسر الزرقاء، فتستأصل شأفة هذه الاصوات النشاز .

ـ كيف ؟
ـ بأن نزف اليك باقية .

وما انقضى شهر تموز حتى زفت الي باقية . فلما خلونا الى بعضنا ، همست في اذنها : يا شريكة حياتي ،
قالت : اشركك ، اولا ، بسري الدفين .

- ٧ -

كيف اصبح سعيد
« ذا السرين »

في تلك الليلة سمعت من باقية ما لم يسمعه عريس ليلة الدخلة ، وما لم يسمع عن صبية في عمرها .

قالت باقية : اسمع ، يا ابن عمي ! احببتك ! فبراس امي وبراس ابي احببتك . واني احبك يا ابن‌عمي . ولكنني ما احببتك تبعث بهؤلاء الناس يطلبون يدي من خالي .

واسمع ، يا ابن عمي ! صغيرة انا . اصغر من السن القانوني للزواج . ولكنني اعرف ان واضعي القانون يتجاوزونه حين تكون لهم من وراء ذلك مآرب اخرى . فما هي مآربهم ؟

دعني اتكلم ، يا ابن عمي ، ولا تقاطعني .

ظللت احبك حتى احببتني . وها انا اصبحت عروسك ، شريكة حياتك . ها نحن نعمر بيتا واحدا .

اصبحت املي ، يا ابن عمي . وانا اريد العودة الى خرائب

قريتي الطنطورة ، الى شاطىء بحرها الساكن . ففي كهف في صخره تحت سطحه يسكن صندوق حديدي ، مليء بذهب كثير ، مصوغات جدتي ووالدتي واخواتي ومصوغاتي ، وضعه والدنا هناك ، واخفاه ، واعلمنا بأمره حتى يلتجىء اليه كل محتاج منا اليه .

اريدك ، يا ابن عمي ، ان تتدبر امرنا حتى نعود الى شاطىء الطنطورة ، خلسة ، او ان تعود وحدك ، فتنتشل الصندوق من مخبأه ، فيغنينا ما فيه عما انت فيه . وانا لا اريد لاولادي ان يولدوا محدودبين . لقد تعودت الا اتنفس الا بحرية يا ابن عمي !

وكنت لا اكاد اتنفس وانا استمع اليها ، الى هذه الصبيـــة تتكلم بجرأة جعلتني اطبق فمي حتى احفظ قلبي في مكانه .

فلما بلغت هذا المبلغ من حديثها ظهرت لي الحقيقة التي كان جهلي بها يثير عجبي من اصحابك ، يا محتـــرم ، كيف يستأسدون على السلطة الجبارة ، ولا يهولهم رجل كبير حتى ولو لم يكن قصير قامة ، مع انهم لا يملكون شروى نقير .

ادركت سركم ، يا استاذ ! فكل واحد منكم ، اذن ، لديـــه صندوق حديدي ، في طنطورته ، حيث اخفى والده كنـــزه الذهبي .

فلما ادركت انني ، بهذا الكنز ، أصبحت واحدا منكم دون ان تعلموا من امري شيئا ، انشال هم عن صدري .

واعجب ما اعجبني منكم انكم قدرتم على اخفاء هذا السر ، على الرغم من انه سر شائع بين الالوف ، بل عشرات الالوف منكم . فقلت في نفسي : اذا استطاعوا ذلك فكيف لا استطيعه

وسري لم يجاوز الاثنين ، باقية وانا ؟

فقمت الى باقية اطمئنها على اماني ، وعلى رجوليتي ، واخذت امزج دموعها بدموعي ، وهو اضمن للزواج حتى من امتزاج الدم في عروق البنين ، حتى هدأت واطمأنت واصبحت شريكة حياتي .

ومنذ تلك الليلة رحت القب نفسي بذي السرين : سري وسركم . اما معرفتي بسركم فقد خففتني . واما معرفتي بسر باقية فقد اخافتني .

- ٨ -

كيف اصبح سعيد صاحب دعوة

قلت لها : نامي ، الصباح رباح . ولكنني لم انم . فقد ادركت ان طريقنا الى الكنز محفوف بالمخاطر . فاذا لم اتدبره مليا وقعنا . فلا كنزا انتشلنا ولا سرا حفظنا .

فاذا كان البيت الذي شيده اخي،على شاطىء تل السمك، اصبح ملك حكومة الرجل الكبير ، ذي القامة القصيرة ، فكيف بصندوق في البحر ، على امتار من الشاطىء ، اي في مياه اسرائيل الاقليمية قطعا ؟

وكانت باقية ، مثلي ، تدرك ان الامر محفوف بالمخاطر . بل انه محفوف بأشد المخاطر . بل حسبت ان العرب الذين بقوا في اسرائيل هم ، أيضا ، ملك الدولة . قالت ان المختار اخبرهم بهذا الامر ، انهم اخبروه به .

وكنت ، في احدى الليالي ، سألتها : الم يكن لاخوالك ارض في جسر الزرقاء ؟ فأجابت : بلى . ولكن الحكومة استولت عليها كما استولت على بقية الاراضي في جسر الزرقاء .

فسألتها الم يرفع اخوالك امرهم الى القضاء ؟

فأبدت دهشتها . وقالت: قال لنا المختار انهم قالوا له : حاربتم فانهزمتم ، فأصبحتم ، واموالكم ، حلالا لنا . فبأي قانون يطالب المغلوب بحقه ؟

فما انتبهت الا وانا اهتف : ها ، ها ! الآن فهمت حرص الرجل الكبير على منع الشيوعيين عن دخول قريتكم او عن دخول امثالها من القرى التي عزلتها الطبيعة . فاذا لم تعزلها، سيجوها بالاسلاك !

ولات ساعة مندم . فقد فتحت باقية عينيها الواسعتين وامطرتني بالاسئلة :

ـ من هم الشيوعيون ؟

ـ ناس يكفرون بالنعمة .

ـ اية نعمة ؟

ـ نعمة الغالب على المغلوب بالحياة

ـ هذه نعمة ربنا

ـ فيكفرون بربنا . انهم ملاحدة

ـ كيف يكفرون ؟

ـ يدعون القدرة على تغيير المكتوب .

واستعذت بالله . ولكنها ازدادت تلهفا والحاحا .

ـ كيف يقدرون على ذلك ؟

ـ لعلهم وجدوا ، مثلما وجدنا ، صناديق تركها لهم آباؤهم

مخبوءة على شطئان طنطورتهم .

فهيج هذا الجواب خاطرها ، فأبرقت عيناها ، وحزمت ما بين حاجبيها فحزمت امرها،وهي تقول:نستعين بالشيوعيين!

فأدركت انني اغوص في بئر لا قعر له ، وانني كلما اردت ان انتشلها من حكاية الشيوعيين هذه ازداد غوصا فيها . فيهيج خاطري ان لو سمع يعقوب هذا الحوار لاتهمني بالدعوة الشيوعية. فألقيت على مسامعها ، همسا ، دعوة الحذر .

ولما لم يبق لي والدي ، رحمه الله ، من متاع الدنيا غير الحذر ، فقد جعلت احمل اليها هذا الميراث صبحة وعشية. فقلت لها : قال والدي ، رحمه الله ، ان الناس يأكلون الناس، فحاشا ان تثق بمن حولك من الناس ، انما عليك ان تسيء الظن بكل الناس ، حتى ولو كانوا اخوتك من بطن امك ومن ظهر ابيك . فاذا لم يأكلوك فقد كانوا يستطيعون ان يأكلوك .

وغير ذلك من كلام الحيطةواليقظة حتىاغفت على ساعدي. فقعدت متيقظا طول الليل وانا افكر في امر الصندوق وانتشاله .

ـ ٩ ـ

حكاية الثريا التي رجعت تسف الثرى

وبعد عشرين عـــاما ، لمـــا قرات عن كنز العجـــوز اللداوية ثريا عبد القادر مقبول،كيف اضاعته لسلامة طويتها، اي لسذاجتها ، ايقنت انني احسنت صنعا لما لم ابق عنصرا من عناصر الخطر والفجاءة الا حسبت حسابه ، واحتطت له حيطة شديدة ، حتى بقي سري دفينا ما كشفت عنه الا الآن ، ولك يا محترم .

ففي العاشر من ايلول ، من العام الخامس ب.ح* ، الموافق عام ١٩٧١ م روت صحيفتكم الاتحاد ، عـــن معاريب ، عـــن هآرتس ، عن الشرطة الاسرائيلية العامة ، عن شرطـــة اللد الاسرائيلية ، ان السيدة العجوز ثريا عبد القادر مقبول،السن خمسة وسبعون عاما ، عادت من الاردن الى بلدها ومسقط راسها،مدينة اللد، بموجب نظام العطلة الصيفية عبر الجسور المفتوحة . وذلك بعد ان ظلت بعيدة عن بلدها ثلاثة وعشرين

---

* ب.ح ـ بعد حرب حزيران .

عاماً لاجئة في عمان مع زوجها واولادها .

عاشت في عمان مع زوجها وطفلها وابي عمرة* الذي رحمها فلم تنجب منه اطفالا . حتى شب ولداها ، فسعيا الى الكويت في طلب الرزق . فعادا بحفنة نفط احمر شيدا بها بيتا في عمان شيعا منه والدهما الى مقره الاخير . ثم اقبل ايلول الاسود ، عام ١٩٧٠ ، على صورة دبابة هاشمية نقية تقية من طراز شيرمان هدمته فلم يخرج من تحت الانقاض سالما سوى الثريا وطويتها السليمة .

فلما وقفت ثريا عبد القادر مقبول بين الانقاض في صحراء الغربة القاحلة ، تذكرت عزها الدارس في فردوسها المفقود ، في بيتها العامر في اللد . وكانت خبأت مفتاحه في نقره في الجدار . وكانت جمعت مصوغاتها في صفائح دفنتها في ذلك الجدار . وكانت توكلت ونزحت مع النازحين عام ١٩٤٨ ، وهي تؤكد لنفسها : غدا اعود .

فلما اقبل هذا الغد ، بعد ثلاثة وعشرين عاما ، ازمعت امرها . وفي الصيف عبرت الجسر المفتوح . فضيعت اللبن.

ولما ارادت ان تدخل بيتها القديم في اللد لتنتشل كنزها ، اغلقت وريثتها الشرعية ، من عهد نوح ، الباب في وجهها . فلم تفاجأ حيث ان ظلم ذوي القربى اشد مضاضة .

فنصحها ذوو القربى ، المقيمون في اسرائيل ، ان تلتجيء الى قبضة الامن وعسس النظام ، اي الى الشرطة الاسرائيلية. فعملت بالنصيحة . فأرسلوا معها رجل شرطة ورجلا قيما على اراضي اسرائيل . فلم يشاؤوا ان يقلقوا راحة الوريثة

---

* ابو عمرة ــ كنية الجوع .

الشرعية ، فأتوا منزل العجوز من خلف جداره ، في منزل يقيم فيه ذوو قربى . فأحسنوا وفادتها . فأشارت الى مكان في الجدار ، فحفروا عميقا . فوجدوا صفائح المصوغات . ثم اشارت الى مكان آخر . فحفروا . فوجدوا المفتاح . فهللوا وكبروا . واغرورقت عيون الجمع . ومسح الشرطي دموع رجل القيم بمنديله . فقوم القيم انسانية رجل الشرطة تقويما عاليا ، فمسح دموعه بمنديله . وتعانق العرب واليهود . وتعايشا بدموع الفرحة والامتنان والانسانية . فأبلغوا رجال الصحف . فنشروا الخبر . واذاعته الاذاعة . وكم من معلمة في روضة اطفال ، في تلك الايام المشهودة ، روت هذه الحكاية على اطفال الروضة ، عن شرطة اسرائيل التي تبحث عن كنوز الامهات الثكالى العربيات وتبحث عن الاطفال اليهود الضائعين ، ولا يغمض لها جفن .

ولكن ، حين مدت الام الثكلى ، الثريا ، يدها لتطول مصوغات عرسها ، ناولها رجل القيم على اراضي اسرائيل « شهادة بالذهب » واخذ الذهب وذهب . واما الثريا فأخذت «شهادة الذهب » وذهبت ، عبر الجسور المفتوحة ، راجعة لتسف الثرى في مخيم الوحدات ولتدعو بطول البقاء لذوي القربى ولأولاد عمهم .

اما انا فقد علمتني التجارب الا احسن النية ، وان ابقي الطوية مطوية ، علما بأن بطاقة اتحاد عمال فلسطين لا تنفعني الا حين لا انفع غيري ، او ان يعود النفع على الرجل الكبير ، ذي القامة القصيرة ، الذي لا ينفع احدا .

فلما نقلت متاعي من بيت الى بيت اصلح للزوجية ، من وادي النسناس في حيفا الذي لا يصلح لعشار البهائم ، الى شارع الجبل ، ودفعت ثمن المفتاحية ، او خلو الرجل ، حتى لم يبق معي ما استأجر به دابة لنقل متاعي ، فنقلتها راجلا ،

اذا بسيارة تقف فجأة امامي . فينزل منها تأبط شرا. فيستل من تحت ابطه قلما وورقة ويقول :

ـ نحن (وهو وحده !) من الحارس على املاك العدو .

فاستللت بطاقة اتحاد عمال فلسطين من جيب المؤخرة ، وهتفت : نحن معكم !

قال : لا ، لا . اريد شهادة تثبت ان هذا المتاع هو متاعك ، ولم تسرقه .

فأسقط في يدي . فأعدت البطاقة الى جيب المؤخرة . فأسقط في المؤخرة : متى حفظ الناس شهادات تثبت ان متاع بيتهم هو متاع بيتهم ولم يسرقوه ؟ فخففت على بنطلوني.

قال : لا ، لا . هذا متاع بيت عربي .

وكان هذا القول قولا صحيحا .

فقال : فقد اصبح ملك الدولة .

قلت : كلنا ملكها .

فلم ينج متاعي من ملك الدولة حتى استدعينا يعقوبا فأقنعه بأنني ، انا ايضا ، ملك الدولة . فحملت المتاع الى بيتي الجديد وأنا غير مقتنع بأن الحارس كف شره عني . فكنت ، كلما عسكر ليل ، فطرق طارق بابي ، اقوم مذعورا وانا اهجس بجاء الحارس ليضع اليد على متاعي .

فلما اشركتني شريكة حياتي ، باقية الطنطورية ، بسر كنزها ، فأصبح سري الدفين ، صار طرق ابن الجيران على الباب ، ليدعونا الى زفاف اخته ، يلقينا من الفراش على اقدامنا مذعورين ونحن نتهامس : لقد علموا !

ولكنهم لم يعلموا .



- ١٠ -

حكاية السمكة الذهبية

فمنذ ان اصبح سر باقية سري،اصبحت الحذر مجسما يمشي على اثنتين. فلما ادركت ان الحذر هو من ذوات الاربع، رحت امشي على اربع .

فلما انجبت باقية طفلنا البكر ، فأرادت ان تسميه باسم والدها النازح « فتحي » ، فرفع الرجل الكبير ، ذو القامة القصيرة ، حاجبيه فوق المكتب تساؤلا ، سميناه « ولاء » . ولما ادركت ان تحديد النسل هو من مقومات الولاء لم ننجب غيره . وكنت ، كلما أثقل السر علي ، اطلق لساني باعلان الولاء في محله او في غير محله . وكنت اعتبر نفسي باطنيا حتى ارسلونا في وفد الى اوروبا وحملونا قبعات «تمبل» لنهديها الى اخواننا اليهود هناك ، مع احاديث اللبن والعسل وتزويج العوانس واشفاء السرطان ، فأهديتهم قميصي وبنطلوني وثيابي الباطنية . ولم احتفظ الا بسري الدفين .

وطول هذا الوقت كنت اختلي بباقية نغمغم همسا بأحسن الطرق الى انتشال الصندوق . حتى تواضعنا على كلام غريب لا يفهمه سوانا .

وكنت كلما ، وقفت امام زملائي في الصنعة، فدهمني التفكير بالسر وشعرت به يحاول ان يقفز من عيني ، اغمضهما حتى لا يقفز . حتى لبستني هذه الآفة . فصارت جفوني ترف ، اغمضهما وافتحهما . فقالوا : بالوراثة . فقلت : هذا جناه علي جدي لأبي ، رحمهما الله . وما كنت كاذبا .

ولما كان اكثر كلامنا ان في العجلة الندامة وفي التأني السلامة، فقد ظل ولا يحبو متأنيا حتى بلغ الرابعة من عمره . فاصطحبته الى شاطىء الطنطورة امعانا في التعمية . وشجعته على صيد السمك .

وكنت ، اجلسه على صحره في لسان البحر . فيرسل خيطه . فأخلع ثيابي وانزل البحر طالبا منه ان يناديني اذا اقبل مقبل . ثم اسبح بعيدا نحو الجزيرة القفراء الصغيرة ، في عرض البحر امام خرائب الطنطورة . فأغوص ما وسعني الغوص في كهف معتم تحت الصخر ، في المكان الذي ارشدتني اليه باقية ، فلا اجد سوى سمك يفر او طحالب لاصقة . ولم اجرؤ على المضي بعيدا في الكهف .

حتى اسمع بكاء ولدي ولاء ، وقد استوحش . او اسمع نداءه . فأخرج الى السطح فأرى عاشقين يتعانقان على الشاطىء . فأعود ادراجي ، ويمضيان في ذلك .

وكان ولاء يلح علي سائلا : عما تبحث يا ابي ؟

فأجيبه : عن السمكة الذهبية .

واحكي له ما علق في ذهني من حكايات الف ليلة وليلة . واسرح به مع خيالي الباحث عن الكنز الذهبي منذ جدنا الاكبر ، ابجر بن ابجر .

ــ فهل ستجدها يا ابي ؟

ــ اذا ثابرت على الغوص ، ولم تفش السر ، فسوف نجدها .

ــ فهل وجدها آخرون ، يا ابي ؟

ــ لا بد ان يكون آخرون وجدوا سمكاتهم الذهبية .

ــ فاذا وجدناها ، ماذا سنفعل بها ، يا أبي ؟

ــ مثلما فعل بها الآخرون .

ــ فماذا فعل بها الآخرون ، يا ابي ؟

ــ لم يطلعوني على سرهم .

فكان ينصرف الى ما هو فيه من لهو او من صيد. او كان يعلن انه يرغب في العودة الى البيت . فنعود .

وما كنت اعلم انه يعود لكي يختلي بوالدته . حتى اقبل يوم اقتعدنا فيه هذه القعدة على شاطىء الطنطورة فاذا به يفاجئني بالسؤال :

ــ لماذا ، يا أبي ، تخاف من ان يراك الناس وانت تبحث عن السمكة الذهبية ؟

ــ حتى لا يسبقوني اليها .

ــ فاذا وجدتها ، يا ابي ، وعلمت الحكومة بالامر ، هل

ستأخذها منا كما اخذت الطنطورة من جدتي ومن جدي ؟

ـ من ادخل هذه الافكار الى راسك ، يا ولد.؟

ـ ماما !

وفي تلك الليلة بقينا نتشاجر همسا ، باقية وانا ، كي اقنعها بأن تبقي الكنز سرا عن ثالثنا ، وان نعلمه ان لا يفرط في كلامه ، وان يحبس لسانه ، وان يحذر الحذر كله ، والا يتكلم في هذه الامور الا همسا ، حتى طلع الفجر .

فما انتبهنا الا وهو يدخل علينا،يمشي على رؤوس اصابعه، ويضع سبابته النحيلة على شفتيه المزمومتين ، وهو يهمس :

ـ جاءت اللبانة !

— ١١ —

بحث عجيب في الخيال الشرقي وفوائده الجمة

لا ، يا معلم . ليست حكاية السمكة الذهبية ، وليست غيرها من حكايات الف ليلة وليلة ، هي السبب في ضياع ولدي ، وحيدي ، ولاء . فلو انطلق هذا الخيال الشرقي المكبوت ، الذي تنفس بألف ليلة وليلة ، لعانق النيرين .

ما قولك بالفلاح المسكين ، الذي خاف على عروسه من كلام الناس ، فوضعها في صندوق حمله فوق ظهره وقام يحرث ارضه وهي فوق ظهره يوما يوما . فلما التقاه الامير بدر الزمان ، فسأله عن سبب هذا الصندوق محمولا فوق ظهره، فأخبره ، فأراد الامير أن يرى بعينيه ، فأنزله وفتحه ، فاذا بعروسه مضطجعة ، في الصندوق فوق ظهر زوجها ، مع الشاب علاء الدين ، أليس في الامر عبرة يعتبرها مصدقو النهاشات في الاعراض ، المحمولات ، صونا ، على ظهور رجالهن في صناديق ؟

ولولا هذا الخيال الشرقي هل استطاع عربك ، يا معلم ، ان يعيشوا في هذه البلاد يوما واحدا ؟ فأنت ، في كل سنة في

عيد الاستقلال ، ترى العرب يرفعون اعلام الدولة ابتهاجا ، اسبوعا قبل العيد واسبوعا بعد العيد . وتتزين الناصرة بأكثر مما تتزين به تل ابيب من اعلام خافقات. وفي وادي النسناس، بحيفا ، حيث تآخى العرب واليهود الفقراء ، يعرف بيت العربي من بيت جاره اليهودي بأعلام الدولةالخفاقة فوق بيت العربي فحسب. اما بيت اليهودي فحسبه انه يهودي. وكذلك السيارات في عيد الاستقلال ، تعرف قومية صاحبها بأعلامها الخفاقة . فلما سألت احد ابناء قومي عن السر في هذا الامر ، اجاب : خيال يا اخ ! هؤلاء اوروبيون خيالهم باهت ، فنرفع الاعلام حتى يروا بعيونهم .

قلت : فلماذا لا يرفعون الاعلام هم ايضا ؟

قال : خيال ، ايضا ، يا اخ ! هم يعرفون ان خيالنا شرقي، نفاذ،نرى به ما لا يرى. فنرى الاعلام وهي مطوية فيالصدور. الم يحاول المرحوم اشكول ان يحول الحكم العسكري الى شيء يرى ولا يرى ، فرأيناه ، على الرغم من ذلك ، في اوامر الاقامة الجبرية وفي اخاديد الجروح في خدودنا ؟ خيال ، يا محترم .

والشاب العربي ، الذي صدم بسيارته سيارة اخرى في شارع ليلينبلوم في تل ابيب ، ما كان ينقذه سوى خياله الشرقي ؟ نزل من سيارته وهو يصرخ : عربي ، عربي ! فتلهى الناس بضرب الضحية حتى ولى اخونا الادبار .

والندل شلومو ، في افخم فنادق تل ابيب ، أليس هو سليمان بن منيرة ، ابن حارتنا ؟ ودودي ، أليس هو محمود ؟ وموشي ، أليس هو موسى بن عبد المسيح ؟ فكيف كان يرتزق هؤلاء ، في فندق او في مطعم او في محطة بنزين ، لولا الخيال الشرقي وحكاية السمكة الذهبية ، وجبل المغناطيس ، في

وسط البحر الهائج ، فلا تستطيع ان تشق عبابه بقاربك الا اذا امتنعت عن ذكر الله ، سبحانه وتعالى ، على لسانك مهما يمج الموج وتعصف العاصفة ؟

وهل غير الف ليلة وليلة نفع تلك القرية الصغيرة الخربة الوادعة ، بالقرب من باقة الغربية في المثلث الصغير ، حين جاءوا اليها في الانتخابات الثالثة وامروها ان تمنع الشيوعيين ، بالقوة ، من عقد اجتماعاتهم في القرية والا فسوف يشردونهم ، بالقوة ، عبر الحدود ؟

فلما ارسلني يعقوب الى القرية ، قبيل موعد الاجتماع بساعة ، لأستطلع الامر ولاضمن تنفيذ الضرب ، دخلت القرية فما التقيت انسانا . فتنقلت بين بيوتها . فاذا ابوابها مفتوحة . فدخلت البيوت من ابوابها المفتوحة . فما وجدت حيا سوى دجاجات سائبة . واما الكلاب فأقعت في القيلولة .

فرحت امشي مذهولا أتصورني الامير موسى وقد دخل مدينة النحاس المسحورة ، فاذا « لا حس فيها ولا انيس . يصفر البوم في جهاتها . ويحوم الطير في عرصاتها . وينعق الغراب في نواحيها وشوارعها ويبكي على من كان فيها »* .

حتى سمعت سعالا في بيت من الطين . فولجته فاذا شيخ ضرير مقعد . فلما سمع وقع اقدامي قال : هل جئتم ، يا شوعة ؟

قلت كاذبا : جئنا . فأين اهل البلد ؟

قال : خرجوا جميعا الى تلة قريبة ليكفوا شر الحاكم

---

* **حكاية مدينة النحاس من حكايات الف ليلة وليلة .**

وشركم عن هذه القرية . فاخرجوا ، يا بني ، فيعود اهلها اليها .

ولما استوضحته الامر ابلغني انهم اجتمعوا شورى بينهم فقالوا : لا نعرف هؤلاء الشوعة ولا يعرفوننا .. وليس بيننا وبينهم دم ولا ثأر . فاذا اراد الحاكم قتلهم فهو أولى بذلك منا واقدر عليه . وأذا لم نقتلهم قتلنا الحاكم . فقرروا ان يهجروا القرية حتى ينقضي النهار .

قال : اما انا فبقيت لان العمى قتلني . فلا اقتل ولا اقتل . فاذهب ، يا بني ، حتى ينقضي اليوم على خير .

فمضيت الى يعقوب بهذه البشارة . فصاح في وجهي : يا حمار . لقد فعلوها وانت تحسبها بشارة ؟ كل ما اردناه ان يفصل الدم بينهم ، لا التلة !!

ولم اكن احسبها بشارة بل اردت له أن يتوهم انني احسبها بشارة . اما ما كنت افكر به فهو ما كان الامير موسى يفكر به وهو يقرأ ما كان منقوشا على لوح الرخام الابيض الاول في مدينة النحاس الميتة :

« اين ملك البلاد ، وأذل العباد ، وقاد الجيوش ؟ .. نزل بهم ، والله ، هازم اللذات ومفرق الجماعات ومخرب المنازل العامرات . فنقلهم من سعة القصور الى ضيق القبور » ، ثم وهو يقرأ ما كان منقوشا على اللوح الثاني :

« اين الملوك الذين عمروا العراق ، وملكوا الآفاق . اين من عمروا اصفهان وبلاد خراسان ؟ دعاهم داعي المنايا ، فأجابوه . وناداهم منادي الفناء ، فلبوه . وما نفعهم ما بنوا وشيدوا .

ولا رد عنهم ما جمعوا وعددوا »* .

ولكنني لم اكن ابكي كما بكى الامير موسى .

وهذا كان حالي حين كنت اقضي حاجة في المحكمة العسكرية بالناصرة . فاذا بطفل في العاشرة من عمره يخرج الى الباحة مذعورا يسأل الرجال عن امر . فأشاروا صوبي . وكانوا يعرفون صنعتي وبطاقتي . فأقبل علي الولد وهو يقول : الحاكم يطلبك . فهرولت الى القاعة مرفوع الراس ان الحاكم يطلبني ، فاذا المحكمة معقودة . واذا الطفل يقول : هذا ، يا سيدي ، من اقربائي . فبهت ، فنطق بالحكم علي بالسجن ثلاثة أشهر او بفدية خمسين ليرة . كيف ؟ قيل : لأن الطفل ، الذي ادعى قرابتي، سافر الى حيفا بدون أذن عسكري بالسفر الى حيفا . وحيث ان اصول الدمقراطية تحول دون حبس الطفل فقد قرروا حبسي* ..

فلما صحت انكر قرابته القى الحاكم على الحضور محاضرة في رغبة الدولة في ان يتحلى رعاياها العرب، هم ايضا، بالشجاعة الادبية ، وفي ان الدولة تحترم الذين لايتنكرون لذوي القربى.

فلما اشهرت بطاقة اتحاد عمال فلسطين زجرني وقال : سأحيل امرك على رؤسائك كي يعلموك الشجاعة .

فنقدتهم خمسين ليرة وخرجت شجاعا .

فبحثت عن الولد ، قريبي ، فاذا هو بين الرجال واحدا منهم وقد ضحك ضاحكهم وقال : خيال ، يا محترم ، خيال !

اما خيال ولاء ، ابني ووحيدي ، فقد وجد متنفسا آخر .

---

* من الف ليلة وليلة ، طبعة بولاق المجلد الثالث ، صفحة ١٤١ .
* وقعت هذه الحادثة ، فعلا ، يوم ٣-١١-١٩٥٢ .

- ١٢ -

حادث أصعب على التصديق من الموت على الاحيـــاء

ذلـــك اننا انشغلنا عن وحيدنا ولاء بصون السر وبالبحث عن الكنز في اعماق البحر ، في خفاء اعمق منه غورا .

حتى اصبح شابا يافعا غريب الاطوار. لا يتكلم الا مضطرا. فاذا تكلم انتشر كلامه انتشار غيوم الصيف التي تتخيلهـــا كما يعن على بالك : رؤوس حيوانات ، او فوارس على افراس وهي تشن الغارة ، او ملاك مسجى تحت قدمين .

فأقبل ذلك اليوم المشؤوم، من الخريف الاخير قبل الخريف الحزيراني المقيم* . فاذا بضوضاء وجلبة تدهمني مـــن كل جانب . واذا بعسكر كثير يدخلون علي في مكتبي. وقد اشرعوا سلاحهم الناري. وعلى رأسهم الرجل الكبير وقد خلع نظارتيه السوداوين ولبس وجها اشد سوادا من القطران. وهو ينفض اطرافه وجوانحه .

---

* اي خريف عام ١٩٦٦ .

ووقف وراءه معلمي يعقوب ، وقد طأطأ راسه . ووراءهما وحواليهما العسكر . فأقعدتني المفاجأة عن القيام وانا احسب ان القيامة قامت .

وزاغت ابصاري . فرايت صفوفا متراصة من الرؤوس تتراقص في جدران الغرفة وعلى ارضها . وكنت ارى هذه الرؤوس تتسرب من بين اصابع يدي المشلولتين فوق المكتب. وكانت هذه الرؤوس تفغر افواهها وتصرخ في وقت واحد بكلام لم التقط منه سوى شتائم عربية اضحكتني صياغتها غير المألوفة ، فضحكت ، فأضحكني ضحكي ، فأغربت بالضحك حتى تقطعت خواصري . ولم أثب الى رشدي الا بعد ان وثبوا علي فطرحوني ارضا فاقد الرشد .

وظللت فيما يشبه الغيبوبة وهم يحاولون ان يهزوا دماغي المهزوز برواية اصعب على التصديق من الموت على الاحياء :

ولاء ، ابني وحيدي ، هذا الشاب الحيي الضئيل ، الذي يأكل القط عشاءه ، اصبح فدائيا واعلن العصيان المسلح على الدولة !

وأنا المسؤول . وتلك الحية الرقطاء ، الطنطورية ، التي كان يجب ان ترحل مع اهلها ، مسؤولة . ومعلمي يعقوب مسؤول . هذا الحمار الذي اعماه شرهه الشرقي ، الى طعامي الشرقي ، عن واجب اليقظة . ولا ريب اننا تآمرنا ، « كلكم ، كلكم » ، على الرجل الكبير ، ذي القامة القصيرة ، حتى نخرب بيته . « ولكنني سأخرب بيتكم » !

اما الدولة فتعرف كيف تحفظ امنها ، وتضرب حتى لات ساعة مندم .

فقد استطعت ان اجمع ، بين الشتيمة والشتيمة والغيبوبة

والغيبوبة ، شتات رواية اشبه بحكايات المردة والجن والعفاريت ، عن حياة اخرى من حيوات وحيدي ولاء .

انه أنشأ ، مع اثنين من زملاء الدراسة ، خليه سرية . فانتشلوا من كهف ، في غور صخري في بحر الطنطورة المهجور، صندوقا محكم الصناعة والاقفال ، لا يدخله ماء ولا تناله رطوبة ، فيه سلاح وفيه ذهب كثير .

ـ باقية ، يا باقية ، اهذا ما اتفقنا عليه ؟
ـ سعيد ، يا سعيد ، اولادنا آمالنا !

فاشتروا سلاحا وذخيرة ومتفجرات . واقاموا مخزنا وموئلا سريا في قبو مهدوم ومهجور في خرائب الطنطورة . فأرسلو احدهم الى لبنان حتى يقيم الصلة بالفدائيين .

قال الرجل الكبير : فوصلناه بأيدينا . امسكنا به وبالآخر .

اما ولاء فالتجأ الى الموئل في القبو ، وقد اجمع امره على ان يموت شهيدا .

ـ فجئناك يا سعيد ، يا ابن النحس ، يا ابن المتشائل ، كي تقوم وتمضي اليه فتقنعه بأن يرجع عما هو مقدم عليه من انتحار صبياني ، شفقة بك وبأمه . ولم نأتك الا لأنك رجلنا . فنريد ان نخدمك كما خدمتنا .

قم الى بيتك فاصحب امه ، الطنطورية ، وامضيا الى خرائب الطنطورة قبل ان تصبح حياتكم كلها خربة واحدة . فاذا سلم منحناه الحياة ، من اجل خاطرك . فاذا ابى الا ان يفضحنا متم .

فلما لم استطع القيام على رجلي ، حملوني حملا . فتحاملت باقية على نفسها وعلى دموعها . ولم اشأ أن اعاتبها صونا للسر ، حتى القوا بنا على شاطىء الطنطورة . ووقف العسكر بعيدا . وكانت الشمس ترنو الى المغيب في امسية جف ريقها وحنا شفقها علينا شفقة .

- ١٣ -

آخر الحكايات حكاية السمك الذي يفهم كل اللغــات

ظل مــا حدث في تلك الامسية الخريفية ، على شاطــىء الطنطورة المهجور ، سرا مصونا من اسرار الدولة حتى يومنــا هذا . ولكنني لا اعتقد انهم سيحولون بينك وبين اذاعته بعدما جرى منذ حزيران .

ولا اعلم ما دونوه في دفاترهم المحفوظة عما جرى في تلــك الامســية . اما ما حفظته في صدري ولا انساه جملة وتفصيلا، فهو ما يلي :

وقفنا امام القبو الخرب ، الذي قالوا ان ولاءا مختبىء فيه بأسلحته ومتفجراته . فتكلمت باقية :

ــ دعني له ، فأنا امه . ولم احمله جنينا فقط بل حملته سري ، وحملته املي .

فانتحيت جانبا وجلست على سور متداع انظر الى البحر الساكن فلا ارى ، وانظر الى الشمس الغاربة فأشعر بالغربة.

واقتربت امه من القبو المهجور ، خطوة ، ثم اقتربت منه خطوة اخرى ، ثم نادت عليه :

ــ ولاء ، يا ولاء . بني لا تطلق الرصاص فأنا امك ! فأطبق صمت .

ــ لا جدوى من المقاومة ، فقد كشفوا امرك .

فأتانا صوته ، وقد جعله العمق اجش ، وهو يتكلم ، كعادته ، مضطرا :

ــ كيف ؟

ــ هم ارشدوني الى مخبأك .

ــ لست بمختبىء ، يا اماه . انما حملت السلاح لانني مللت اختبائكم .

فأطبق صمت .

حتى عاد صوته يأتينا من الاعماق . فعجبت لهذا الصوت العميق كيف يحتويه صدره الضامر :

ــ يا امرأة ، يا التي هناك ، من انت ؟

ــ امك انا يا ولاء ، فهل ينكر الولد امه ؟

ــ امي ، وتجيء معهم !

ــ بل ارسلوني ، مع والدك ، وحدنا يا ولاء ... ها هو جالس على بقية سور ينتظر انقاذ بقيته .

ــ فلم لا يتكلم ؟

ــ انه لا يحسن الكلام .

فتنحنحت .

ـ ما الذي جاء بك ، يا اماه ؟

ـ ارسلوني كي اقنعك بأن تلقي سلاحك ، فتخرج الينا ، فتسلم .

ـ لماذا ؟

ـ قالوا : رحمة بي وبأبيك .

ـ قه ، قه ، قه . .

ـ اتطلق الرصاص على البطن الذي حملك ؟

ـ بل اقهقه ، يا اماه . ارايت كيف اصبحوا يتحدثون عن الرحمة . فكيف بهم اذا لعلعت ؟

فتنحنح العسكر .

ـ ولكنهم لا يرحمون احدا يا ولدي

ـ فخفتهم ؟

ـ خوفي عليك يا ولاء .

فأطبق صمت ، حتى عادت تناديه :

ـ ولاء يا ولدي ، الق سلاحك واخرج !

ـ يا امراة ، يا التي جئت معهم ، الى اين اخرج ؟؟

ـ الى الفضاء الرحب يا بني . كهفك ضيق ، مسدود كهفك . وسوف تختنق فيه .

ـ اختنق ؟ . . اتيت الى هذا الكهف كي اتنفس بحرية . مرة واحدة ان اتنفس بحرية !

في المهد حبستم عويلي . فلما درجت ابحث عن النطق في كلامكم ، لم اسمع سوى الهمس .

في المدرسة حذرتموني : احترس بكلامك ! فلما اخبرتكم بأن معلمي صديقي ، همستم : لعله عين عليك ! ولما سمعت حكاية الطنطورة ، فلعنتهم ، همستم في اذني : احترس بكلامك !

فلما لعنوني :

احترس بكلامك !

وحين اجتمعت بأقراني ، لنعلن اضرابا ، قالوا لي ، هم ايضا : احترس بكلامك !

وفي الصباح ، قلت لي ، يا اماه : انك تتكلم في منامك ، فاحترس بكلامك في منامك !.. وكنت ادندن في الحمام ، فصاح بي ابي : غير هذا اللحن . ان للجدران آذانا ، فاحترس بكلامك !

احترس بكلامك ! احترس بكلامك !

اريد الا احترس بكلامي ، مرة واحدة !

كنت اختنق !

ضيق هذا الكهف يا اماه ، لكنه ارحب من حياتكم !

مسدود هذا الكهف يا اماه ، ولكنه منفذ !

فأطبق صمت حتى سمعنا صليل اسلحة من بعيد ، فهتفت به امه :

ـ منفذ ؟

الموت ليس منفذا بل نهاية .

ليس في حياتنا ما يعيب حياتنا . فاذا استترنا فعلى امل الخلاص استترنا . واذا احترسنا فحرصا عليكم .

اي عيب في الخروج الينا ، الينا نحن يا ولاء ، أباك وامك . وحيدا لا تقدر على شيء .

ـ اقدر عليكم .

ـ لسنا اعداءك .

ـ استم معي .

ـ بني ، احترس . .

ـ قه ، قه ، قه . . قوليها ، يا اماه : احترس بكلامك ! لقد اصبحت حرا !

ـ حرا . .

كنت اعتقد انك حملت السلاح لتنتزع حريتك !. .

فاطبق صمت حتى سمعتها تقهقه :

ـ لو كنا احرارا ، يا ولدي ، ما اختلفنا . لا انت تحمل سلاحا ولا انا ادعوك الى احتراس . انما نحن نسعى في سبيل هذه الحرية .

ـ كيف ؟

ـ مثلما تسعى الطبيعة في سبيل حريتها . فالفجر لا يطلع منْ ليله الا بعد ان يكتمل ليله . والزنبقة لا تبرعم الا بعد ان تنضج بصلتها . الطبيعة تكره الاجهاض يا ولدي .

والناس لا يتحملون ما انت مقدم عليه .

ـ سأتحمل عنهم حتى يتحملوا عن انفسهم .

ـ ولدي ، ولدي ،

هل هناك اجمل من وردة في عروة شاب ؟ ولكن امها لا تستطيع ان تمدها بالفذاء . دعني اضمك الى صدري .

فاطبق صمت ، حتى سمعته يتأوه :

ـ اماه ، اماه ، حتى متى ننتظر برعمة الزنابق ؟

ـ لا تنتظر يا بني . انما نحن نحرث ونزرع ونتحمل حتى يحين الحصاد .

ـ متى يحين الحصاد ؟

ـ تحمل !

ـ تحملت عمري .

ـ فتحمل ! . .

ـ سئمت خنوعكم .

ـ لدينا فتية وفتيات لم يخنعوا . فاحذ حذوهم ! تحملوا اطول ليل ، فحملوا الشمس فوق جباههم . ما استطاعوا اخراجهم من ارض الا الى زنزانة . وما هدموا عليهم بيتا الا بعد ان هدموا عليهم اسطورة .. انك يائس ، يا ولدي

ـ لا ارى حولي سوى الظلام .

ـ في الكهف .

ـ حياتي كلها كهف .

ـ فأنت لا تزال في البصلة تتبرعم . اخرج الى نور الشمس!

ـ اين مكاني تحت الشمس ؟

ـ تحت الشمس .

الدنيا بخير ، يا ولدي . فكم من شعب انتزع حريته . وسيأتي موسمنا .

ـ اتظلين تحلمين بالجزر السبع وراء البحيرات السبع ؟

ـ انها جزرنا وبحارنا .

والسندباد ، يا ولاء ، كف عن رحلاته ، وصار يبحث عن الكنوز في تراب ارضه .

ـ حياته على ارضه لا تطاق .

ـ حين تصبح الحياة ارخص من الموت يصبح ما اصعب من بذلها ان نعض عليها بالنواجذ .

ـ ستموتين يا اماه ، دون ان يعود اهلك .

ـ قبل ان يعود اهلي !

ـ كيف ؟

ـ الزمن . دع الزمن يزمن .

ـ قه ، قه ، قه .

ـ اترميني بالرصاص ؟ اتقتل التي خلفتك ؟

ـ بل الزمن يقتل التي خلفتني ويقتلني .

ـ لا تستخف بالزمن ، يا ولاء . فبدونه لا ينبت زرع فنأكل .

ولا تطلع شمس بعد مغيب ..

ـ فهل جاء ؟

ـ سيجيء .

ولا يخرج سجين من سجنه .

ـ فهل خرج ؟

ـ سيخرج .

ولا تعبر تجربة حتى يتعظ الناس .

ـ فهل اتعظوا ؟

ـ هل تريد لجيل واحد ان يحسم في الامر ؟

ـ جيلي .

ـ لماذا ؟

ـ لانه جيلي .

ـ بأي سلاح يحارب جيلك ؟

فاطبق صمت .

حتى سمعتها تسأله ، مثلما كانت تسأله ، وهو طفل ، ان يقبلها :

ـاي سلاح في يدك الآن يا ولاء ؟

ـ رشاش قديم من الصندوق .

فرايتها تندفع راكضة نحو القبو المهجور،ويداها ممدودتان على جانبيها ، كجناحي طير يسرع الى عشه ليحمي جوازله ، حتى كادت ان تغيب في فتحته المعتمة . واذا به يصيح فيجمدها في مكانها :

ـ انهم قادمون وراءك ، يا اماه . فهل تحمينهم بحبي ؟

ـ لا يا ولاء ، يا ولدي ، بل آتية انا اليك . ففي الصندوق رشاش آخر . وسأحميك بحبي .

وما ان غابت عن ناظري حتى اختلط الحابل بالنابل . ولم اعد اميز الاشباح المندفعة من هنا ومن هناك . وقد تركوني لحالي. فما كنت اسمع سوى صراخ مكبوت واوامر مبحوحة. وكنت اتقدم ، ثم كنت اتأخر . وكنت ادور على نفسي. واسمع

شتائم ولكنها لم تكن موجهة الى شخصي .

وفيما يشبه الحلم ، وقد غابت النجوم وكلح وجه القمر ، رأيتهم يندفعون نحو البحر ، فأسمع طشا واحس برش ، وقائلا يقول : غطسا هنا . وآخر يقول : من هنا . ولا ارى الرجل الكبير بل اسمع صوته يمنعهم عن اطلاق اية رصاصة ، ويحثهم على الغوص .

ولم اكن موجودا حين احضروا الكشافات والضفادع البشرية . فقد تأبطني معلمي يعقوب ، الذي وقف الى جانبي، واعادني في سيارته الى بيتي المقفر .

وعادني ، في اليوم التالي ، وامرني ان ابقي ما حدث سرا مكتوما فيعفي عني واعود الى عملي .

ـ بعد ان قتلتموهما ؟

فأخبرني ، وانا مذهول بين مصدق ومكذب ، انهما استطاعا الفرار ولم يعثر لهما على اثر .

وقال انهما شوهدا يتجهان نحو البحر ، الام وولدها ، هذه تحتضنه وهو يدعمها ، حتى غاصا في البحر . ففوجىء العسكر بالامر . ولكن الرجل الكبير منعهم عن أطلاق الرصاص حتى لا ينتشر الخبر . وهو موقن انه سيلقي عليهما القبض ، او ان يموتا غرقا . الا ان البحث عنهما،في الليل ثم في النهار، لم يكشف عنهما حيين ، ولم يكشف عن جثتيهما . فبقي مصيرهما سرا غامضا . ثم قال : ويجب ان يظل سرا مصونا من اسرار الدولة .

وكان يعقوب ، في الايام الاخيرة ، شفوقا بي . ولكنني لم اشأ ان اطلعه على ما اعلمه عن الكهف في جوف الصخر في قاع البحر . وكنت اعتقد انهما قررا الموت فيه .

وكم من مرة حاولت ان استجلي الامر،فلا تطاوعني نفسي .

فان بارقة امل ، بأنهما على قيد الحياة ، خير من ان اغرق هذه البارقة .

وكنت اذهب الى شاطىء الطنطورة ، وقد اصبح عامرا بالمستحمين ، فأقعد قعدة ولاء على صخرته في لسان البحر ، وارسل خيطي ، واناديه في قلبي ان يرد علي .

فاذا بطفل يهودي وقد قعد الى جانبي دون ان الحظه يفاجئني بالسؤال : بأية لغة تتكلم يا عماه ؟

ـ بالعربية .

ـ مع من ؟

ـ مع السمك .

ـ والسمك ، هل يفهم اللغة العربية فقط ؟

ـ السمك الكبير ، العجوز ، الذي كان هنا حين كان هنا العرب .

ـ والسمك الصغير ، هل يفهم العبرية ؟

ـ يفهم العبرية والعربية وكل اللغات . ان البحار واسعة ومتصلة . ليس عليها حدود وتتسع لكل السمك .

ـ آوي فافوي* .

فيناديه والده فيخف اليه . فأسمعهما يتحدثان فأهش فيهما وأبش . فيحسبني الطفل سيدنا سليمان ويشيران نحوي . فيبتسم والده . فيمران قريبا . فأكبر في عينيه حتى يصر على البقاء معي ، فأعطيه من صيدي سمكة صغيرة . فيحدثها ولا تتكلم . فأقول له : أنها لا تزال صغيرة . فيرمي

---

* كقولك : يا الهي !.. او ويلاه .

بها الى البحر كي تكبر وتتعلم النطق . فأقول في نفسي : لو بقي الناس اطفالا لما كبر ولاء ولما ضاع . الم يكن الرجل الكبير في يوم من الايام ، طفلا صغيرا ؟

ولقد عشت فيما بعد شهورا وانا موقن بأن اشارة ستاتيني منهما . فلا يطرق طارق بابي حتى اقوم ملهوفا : لعله منهما .

ولما سمعت ان من بين كتائب الفدائيين كتيبة باسم الطنطورة ، اخذت اقفل النوافذ واستلقي على فراشي وانا احتضن الترانزستور .

حتى اقبل اليوم الخامس من حزيران فسمعت في ليلته الطويلة صوتا جهوريا يصرخ من تحت :

ـ اطفىء الضوء ، اطفىء الضوء !

فأطفأته ولم انم .

الكتاب الثالث

يعاد
الثانية

صدرت في اواسط

١٩٧٤

« انني تشهيت زغاريد النساء

يحملن شوق الف عام للأغاني والفرح »

سميح صباغ ـ البقيعة

– ١ –

سعيد يجد نفسه فوق خازوق بلا رأس

كتب الي سعيد ابو النحس المتشائل ، قال : جاءت النهاية حين استقظت في ليلة بلا نهاية . فلم اجدني في فراشي . فزارتني البردية . فمددت لها يدي ابحث عن سترة فاذا بها تقبض ريح .

رأيتني جالسا على ارض صفاح. باردة مستديرة . لا يزيد قطرها على ذراع . وكانت الريح صرصرا والارض قرقراً . وقد تدلت ساقاي فوق هوة بلا قرار كما تدلي الليف في الخريف . فرغبت في ان اريح ظهري . فاذا بالهوة من ورائي كما هي الهوة من امامي وتحيط بي الهوة من كل جانب. فاذا تحركت هويت . فأيقنت اني جالس على رأس خازوق بلا رأس .

صرخت : النجدة ! فجاءني بها رجع الصدى واضحة حرفا حرفا . فعلمت أنني جالس على علو شاهق . فرحت اسلي وحشتي بمجاذبة الصدى اطراف الحديث . فكان الحديث طريفا حتى افترت الهوة عن ابتسامة فجر اغبر كأنها العبوس .

فماذا انا فاعل ؟

فناديت عليّ قائلا : هدىء من روعك ، يا ابن النحس ، واجعل امرك شورى مع عقلك . فما الذي وضعك هذا الموضع وهل من المعقول ان تنام في فراشك مساء فتستيقظ فاذا انت على خازوق ؟ تأبى هذا الأمر نواميس الطبيعة واحكام المنطق. فأنا ، اذن ، في حلم لا غير على الرغم من انه حلم طويل .

فما بالي اظل قاعدا على هذا الخازوق ، تحزمني البردية ثم تنشرني لا ستر ولا ظهر ولا انيس ، ولا انزل ؟
هذا خازوق في كابوس لا محالة . كابوس عن خازوق . فاذا نزلت عن الاخير نفضت الآخر عن صدري فأعود الى فراشي واتفطى واتدفأ . فكيف اتردد ؟ اخوفا من ان اهوي من هذا العلو الشاهق الى قاع الهوة ، كبطة اردتها رصاصة صياد بط ، فأتوجع فأموت ؟

ولكن موضعي هذا هو موضع الوهم على خازوق الوهم . فهو فيما يراه النائم من احلام تخالف نواميس الطبيعة واحكام المنطق . فهيا،هيا احتضن هذا الخازوق بساعديك وبساقيك وبكل ما فيك من عزم وحزم وارادة شديدة عند الشدة ، ثم اهبط عليه وئيدا كالسنجاب .

فأزمعت امري . فحركت ليفتيّ المتدليتين اتحسس صفحته فاذا بها ملساء كجلد الثعبان باردة مثل بروده . فأيقنت انني لن اقوى على التشبث بهذا الثعبان . واذا نزلت عليه فأنا واقع لا محالة في القاع، فادق عنقي فأتوجع فأموت. فأمسكت .

واتتني حكاية الساحر الهندي الذي ينصب الحبل فيظل يرتفع في السماء حتى يغيب رأسه في الغيم فيصعد عليه حتى

يغيب ثم يعود ويهبط عليه فلا يتأذى بل يسترزق . ولكنني قلت : ما انا بساحر هندي بل مجرد عربي بقي ، سحراً ، في اسرائيل .

فأردت ان اصرخ : انا في كابوس ! ثم ان اقفز ، فلا يمكن ان اموت !

ولقد صرخت . الا انني لم اقفز . فاذا كان موضعي هذا هو موضع الوهم فوق خازوق الوهم ، وفيما يراه النائم في منامه من حلم او من كابوس ، فلن يدوم الامر طويلا قفزت ام قعدت . وسوف استيقظ ، لا محالة ، فأجدني في فراشي متغطيا متدفئا . فما حاجتي ، اذن ، الى مسابقة الساعات ، وربما الدقائق والثواني ، حتى لحظة اليقظة الآتية لا محالة ؟

ما حاجتي الى القفز اذا كان القعود سيقودني الى النتيجة نفسها ؟

وهزتني قشعريرة من البردية كادت ان تلقيني من فوق الخازوق لولا قشعريرة خاطر لم استطع ان اكفه عني :

فكيف اذا كان هذا هو حقيقة وليس فيما يراه النائم من حلم او من كابوس ؟ اما القول بأنه مخالف نواميس الطبيعة واحكام المنطق فلا يكفيني برهانا على انه غير حقيقي . الم تبحث عائلتي ، عائلة المتشائل عن السعادة طي القرون في عجائب خارجة عن نواميس الطبيعة وعن احكام المنطق ؟ واذا ظل اجدادي يدكون اعناقهم وهم يبحثون تحت ارجلهم عن الكنوز المطمورة فها انا قد وجدت ضالتي ، وانا انظر فوق راسي ، في أخوتي الفضائيين الذين اعادوا الى نفسي الطمأنينة. فكيف ينتظر مني ، من دون آبائي واجدادي ، وانا فوق هذا الخازوق بالضبط ، ان اسلم امري الى نواميس الطبيعة واحكام المنطق ؟

ولقد بقيت على هذه الحال اترنح بين قشعريرة وقشعريرة، بردية تقيمني ومحتد عريق يقعدني ، حتى التقيت يعاد مرة ثانية فشعرت بالدفء لاول مرة منذ الف عام !

- ٢ -

كيف أصبح علم الاستسلام، فوق عصا مكنسة، علم الثورة على الدولة ؟

التقيت: يعاد فيما يكون فيه اللقاء في اسرائيـــل ــ في السجن . والاصح انني كنت خارجا منه . اما كيف دخلت السجن فذلك حين افرطت في الولاء حتى اصبح ، في عرفهم ، تفريطـــا .

وذلك حين كنت استمـــع ، في ليلة مـــن الليالـــي الست العفريتية ، الى الاذاعة العربية من محطة اسرائيل احتراسا ، فأتاني صوت المذيع وهو يدعو العرب بالمهزومين الى رفع اعلام بيضاء فوق اسطحة منازلهم فيوفرها العسكر المارقون مروق السهام . فينامون في بيوتهم آمنين . فاختلط عليّ امر هذا الامر : ايهم يأمره المذيع ــ مهزوم هـــذه الحرب أم مهـــزوم رودس ؟ قلت : انهزم أسلم عاقبة ! واقنعت نفسي بأنه اذا ظهر خطئي حملوه على حسن نيتي وبياض طويتي . فصنعت من بياض فراشي علما ابيض علقته على عصا المكنسة ونصبتهما على سطح بيتي ، في شارع الجبل في حيفا ، ولاء الافراط في الولاء للدولة .

فانزلت راسي حتى لامست قدميه وانا اقول : هل عينوك ملكا على الضفة يا صاحب الجلالة ؟

فأخذ يعقوب بتلابيبي - أي ببجامتي - وراح يدفعني على الدرج نحو السطح وهو يشنشن : الشرشف ، الشرشف ! حتى بلغنا موضع المكنسة ، فانتزعها ، فحسبت انه يريد أن يضربني بها ، فتعاركنا راقصين رقصة العصا حتى تهاوى على حافة السطح وهو يبكي ويقول : رحت يا صديق العمر ورحت معك !

فقلت انني رفعت الشرشف على عصا المكنسة ملبيا امر المذيع من محطة الاذاعة الاسرائيلية . قال : حمار ، حمار !

قلت : ما شاني اذا كان حمارا ؟ ولماذا لا تستخدمون مذيعين سوى الحمير ؟

فافهمني ان المعني بالحمار هو انا . اما مذيعو القسم العربي في محطة الاذاعة الاسرائيلية فكلهم عرب . ولذلك اساؤوا صياغة النداء فالتبس الامر عليك ، يا احمق !

فدافعت عن بني قومي ، الذين يعملون في محطة الاذاعة ، قائلا : ما على الرسول الا البلاغ . يهتفون بما يلقنون . واذا كان رفع العلم الابيض على عصا مكنسة يسيء الى جلال الاستسلام فانكم لا تجيزون لنا حمل اي سلاح سوى المكانس .

واما اذا كانت المكانس قد اصبحت ، منذ اندلاع نيران هذه

الحرب ، سلاحا ابيض فتاكا لا يجــوز لنا حمــله الا باذن ، كبارودة الصيد التي لا يؤذن بحملها الا للمخاتير وللمدمنين على الخدمة منذ الصغر ، فانني معكم ابا عن جد . وانت تعلم، يا صديق العمر ، باخلاصي المفرط للدولة ولامنها ولقوانينها ، ما هو معلن منها وما سوف يعلن !

وكان صديقي يعقوب يستمع الى هذياني وهو مشدوه الفم لا يقوى على كفكفة الدمع المنسكب على وجنتيه فلا يقوى على كفي عن الهذيان .

حتى تمالك جأشه فأوضح لي ما وقعت فيه من التباس قرر رئيسنا الرجل الكبير ، ذو القامة القصيرة ، انــه ليس التباسا بل نفير بشق عصا الطاعة على الدولة .

قلت : كلها عصا مكنسة !

قال : نداء المديع موجه نحو عرب الضفة ، أن يرفعوا الاعلام البيضاء استسلاما أمام الاحتلال الاسرائيلي . فما شأنك انت في ذلك في حيفا ، التي هي في قلب الدولة ولا احد يعتبرهـا مدينة محتلة ؟

قلت : زيادة الخير خير !

قال : بل اشارة الى انك تعتبرها مدينة محتلة ، فتدعو الى فصلها عن الدولة .

قلت : ان هذا التأويل لم يدر في خاطري ابدا .

قال : اننا لا نأخذكم على ما يدور في خواطركم بل عـلى ما يدور في خاطر الرجل الكبير . وهو يرى ان العلم الابيض ،

الذي رفعته علي سطح بيتك في حيفا ، هو دليل على أنك تقوم بحركة انفصالية عن الدولة ولا تعترف بها .

قلت : انك تعلم علم اليقين انني مفرط في خدمة الامن ولا افرط به .

قال : اصبح الرجل الكبير يعتقد بأن افراطك هو تمويه على تفريطك . ويستعيد الرجل الكبير اصلك وفصلك ادلة على انك تتغابى ولكنك لست بغبي . فلماذا لم تعشق سوى يعاد ولم تتزوج سوى باقية ولم تنجب سوى ولاء !

قلت : ألم يسأل الرجل الكبير لماذا لم اولد سوى عربي ولماذا لم اجد وطنا سوى هذه البلاد ؟

قال : قم معي واسأله .

ولكنهم اخذوني الى غور بيسان وزجوا بي في سجن شطة الرهيب .

- ٣ -

حديث شطط في الطريق الى سجن شطة

لــم يشأ الرجل الكبير الا ان يصحبني الى بيت خالتي فيسلمني الى مدير السجن تسليم اليد باليد . فنحـن ، الذين ورثتنا الدولة عن آبائنا ، تظل مراتبنا عالية ولـو في قاووش السجن . كقولك نبيل فقد الحظوة في البلاط فأبعد الى جزيرة سيشل .

او هكذا اوهمت نفسي حتى اركبوني في سيارة البوليس المقفلة ، الرجل الكبير مع السائق الكبير ، وانا محشور مـع ستة من رجال الشرطة فيما يشبه عربة الكلاب . فلما اقفلوا الباب قلت : صونا لسمعتي . فلما تأففوا من شدة الحر ، وكنا في آب الهباب ، تأففت معهم . فانهالوا علي لكما ورفسا وانا اصيح : النجدة النجدة ايها الرجل الكبير . ولفظتهـا بلغة عبرية فصحى لأقنعهم بعلو كعبي وحتى اقوم من تحت اكعابهم . فتوقفت السيارة .

فاذا نحن على مفترق الطرق بين الناصرة ونهلال . وقد عرجنا على طريق المرج ، مرج ابن عامر . وكان الرجل الكبير

يؤشر لهم ، من وراء الزجاج الفاصل ما بينه وبين عربة الكلاب ، فأنزلوني وحشروني الى جانبه، بينه وبين السائق. فاسترحت وتنهدت واستنشقت الهواء النقي وقلت : مرج ابن عامر .

فزجرني وقال : بل سهل يزراعيل .

قلت مراضيا : «وما يهم الاسم» كما قال شكسبير؟ وقلتها بالانجليزية .

فقال مهمهما : وتروي عن شكسبير ايضا ؟

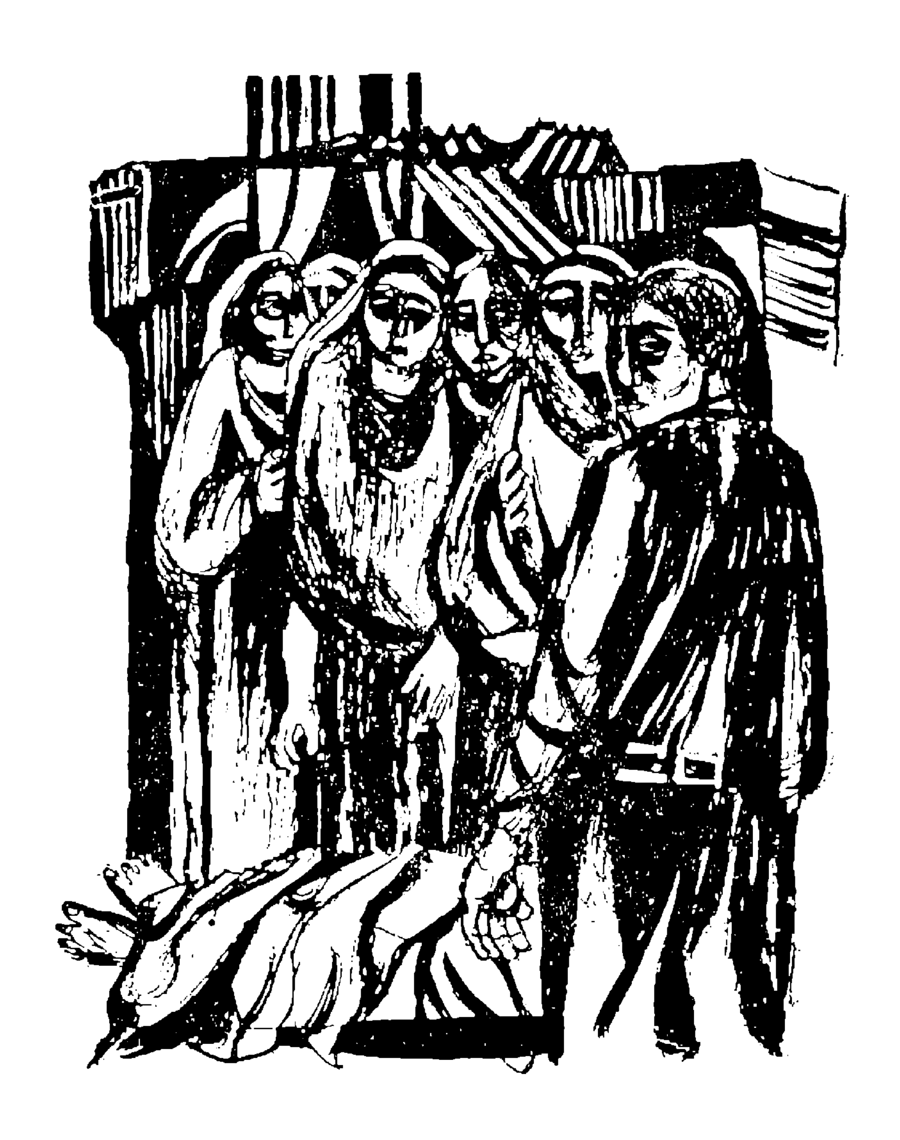
فاسترخيت مبتسما .

فزجرني وهمهم بصوت مسموع **ان هِم**: **، هِم** . ولو كنت اعلم بما وراء هذه الهمهمة لحفظت شكسبير في قلبي لا عن ظهر قلب .

وفيما نحن نوغل في طريق المرج متوجهين نحو مدينة العفولة المرجية ، واكتاف تلال الناصرة الى يسارنا ، اخذ الرجل الكبير يلقنني مبادىء حياتي الجديدة في السجن ، واصول التأدب مع السجانين من فوقي ومع السجناء من تحتي . وذلك بعد ان وعدني بترقيتي همزة وصل .

وكنت ، كلما امعن في هذا التلقين ، ازداد يقينا انه لا فرق بين ما هو مطلوب منا في السجن وما هو مطلوب منا خارجه حتى صحت من شدة الاستحسان : ما شاء الله !

وكان يقول : اذا ناداك السجان فليكن اول جوابك ــ نعم يا سيدي ! فاذا انتهرك السجان فعليك الاكتفاء بأمرك يا سيدي ! واذا سمعت من زملائك المسجونين كلاما فيه أي مساس بأمن السجن ، ولو تأويلا ، فعليك ان تشي بهم الى المدير . فاذا ضربك مدير السجن فقل له . .



فقاطعته هاتفا : حقك يا سيدي !

قال : كيف علمت ؟ وهل كنت مسجونا قبل ان نسجنك ؟

قلت : حاشا ، يا سيدي ، ان يسبقكم احد الى هذا الفضل . انما وجدت ان سجونكم ، عطفا على ما شرحته من اصول التأدب في سجونكم ، هي من الانسانية والرحمة في معاملة المسجونين **بحيث لا تختلفون فيها عنكم خارجها في معاملتنا ،** ولا نختلف . فبأي شيء تعاقبون العرب المذنبين يا سيدي ؟

قال : هذا هو ما يحيرنا . ولذلك قال الوفنا الوزير ان احتلالنا هو ارحم احتلال ظهر على وجه الارض منذ تحرر الجنة من احتلال آدم وحواء .

بل ان هناك من كبارنا كبارا يعتقدون بأننا نعامل العرب داخل السجون معاملة افضل منها خارج السجون ، والاخيرة ممتازة كما تعلم . وهؤلاء الكبار موقنون اننا بذلك ، نشجعهم على الاستمرار في مقاومة رسالتنا الحضارية في المناطق الجديدة ، مثلهم مثل الافريقيين اكلة لحوم البشر الذين كفروا بالنعمة .

قلت : كيف ، يا معلمي الكبير ؟

قال: خذ لك مثلا عقاب الابعاد الى ما وراء النهر . فنحن ننزله بهم وهم خارج السجن . فاذا دخلوا السجن ثبتوا فيه ثبوت الاحتلال الانجليزي .

قلت : ما شاء الله !

قال : ونهدم بيوتهم خارج السجن . اما في داخلها فيعمرون وينشئون .

قلت : ما شاء الله ! ولكن ، ماذا يعمرون ؟

قال : سجونا جديدة وزنازين جديدة في السجون القديمة ويزرعون من حولها الاشجار الظليلة .

قلت : ما شاء الله ! ولكن ، لماذا تهدمون بيوتهم خارج السجون ؟

قال : لنقطع دابر الجرذان التي عششت فيها فننقذهم من الطاعون .

قلت : ما شاء الله ! وكيف كان ذلك ؟

قال : هذا هو التبرير ، الانساني الخالص لوجه وزارة الصحة ، الذي اورده وزير الدفاع عما اضطررنا اليه من هدم بيوت قرى الجفتلك ، في الفور ، وردا على الاتهامات التي قذفها في وجوهنا ، في الكنيست ، النائب الشيوعي اليهودي اجير ناصر والملك حسين وامير الكويت والشيخ قابوس .

— أفحمه ؟
— بل وفحَمَه .
— كيف ، ما شاء الله ؟

قال : منعه رئيس الجلسة عن الاستمرار في الكلام ، فأفحمه . ان الدمقراطية ، يا ولد ، ليست فوضى . والشيوعيون ، كما ترى ، فوضويون. فرفض نائبهم الانصياع لاحكام الدمقراطية فطرده الرئيس من الجلسة طردا ، ففحمه.

قلت : ما شاء الله!

وذلك حين كانت سيارة البوليس تخرج بنا من مدينة العفولة المرجية على طريق بيسان متجهة نحو مقامي الجديد . وكانت نوافير الماء على الجانبين تنشر رذاذها المنعش على

خضرة يانعة ونحن في اوج الصيف . فاذا بالرجل الكبير ، وهو محشور معي الى جنب السائق في عربة الكلاب ، يصبح شاعرا

وكان يقول ، وانا امثل : الخضرة ، الخضرة على يمينك وعلى يسارك وفي كل مكان . احيينا الموات وامتنا الحيات (وكان يعني الأفاعي) . ولذلك اطلقنا على حدود اسرائيل القديمة اسم « الخط الاخضر » . فما بعدها جبال جرداء وسهول صحراء وارض قفراء تنادينا ان اقبلي يا جرارات المدنية !

ولو كنت معي ، يا ولد ، حين عبرنا طريق اللطرون نحو اورشليم ، لرايت امامك الخط الاخضر مرسوما بالفعل على الطبيعة نفسها بخضرة جبالنا المكسوة بأشجار الصنوبر ، الشجرة تخاصر الشجرة والغصن يصافح الغصن وفي ظلها يتعانق المحبون . ثم كنت سترى ، قبالة جبالنا المكسوة ، جبالكم العارية حتى بلا أسمال تخفي عوراتها المكشوفة صخورا ظلت تبكي ربع قرن حتى سحّت عنها كل التربة . دعونا نكفكف دموع الصخر واما انتم فلا تكفوا عن الانشغال بدموعكم وانتم تبنون القصور في أعالي الصخور .

ـ الهذا هدمتم قرى اللطرون ، عمواس ويالو وبيت نوبا ، وشردتم اهاليها ، يا معلمي الكبير ؟

قال : لقد ابقينا على الدير لرهبانه ، مجلبة للسائحين ، وعلى المقابر لذويها ، ايمانا برب العالمين . وورثنا هذا الرحب بهذه الحرب . والذي فات مات . وهو مثل امريكي من اصل الماني .

وما بلغ هذا البيت من شعره حتى كانت السيارة تبلغ بنا

بيوت عين جالوت التاريخية ، التي اعيدت الى اصلها التوراتي ـ عين حارود . وفيها عين ماء تصب في بركة انشأها اهل الكيبوتس ويؤمها اهالي الناصرة ليبتردوا وليشتموا المفول .

فأردت ان اجاريه في شعره فشدني من شعري قائلا : لا يكن لك فكر . لقد انتصرتم على المفول في وقعة عين جالوت لانهم جاؤوا لينهبوا وليذهبوا . اما نحن فاذا نهبنا فننهب لنبقى . واما انتم فالذين يذهبون . اصرف عنك هذه الوساوس التاريخية واستعد لدخول سجن شطة .

وما ان قال هذا الكلام حتى وقع تغير فجائي في وجه الطبيعة من حوالينا . زالت الخضرة في طرفة عين فلم تعد العين ترى سوى ارض جرداء وصخور قمراء ، على اليمين وعلى اليسار وعلى امتداد البصر ، كأنما كنا نشاهد مسرحا هبط في خلفه منظر وارتفع في مكانه منظر .

فقلت متهكما وانا اتظاهر بالجهل بالجيوبوليتيكا : ها نحن خرجنا عن الخط الاخضر ودخلنا في خط العرب الاغبر ، الذين تركوا اراضيهم انتيكا .

فزجرني وصاح : كنت احسبك حمارا فاذا انت احمر . انظر امامك فترى الى م ستدخل .

فنظرت امامي فاذا ببناء ضخم ينتصب امامي ، كالغول في الصحراء . جدرانه الداخلية مطلية بالكلس الابيض . وحوله سور عال مطلي بالدهان الاصفر ، لامر ما . وفوق سطوحه انتصبت كمائن الحرس ، المشرعي السلاح ، على اربعة اطرافه . فهالنا مشهد هذه القلعة الصفراء ، لا خضرة ولا كسوة . وهي ناتئة ، كالدمل السرطاني ، على صدر ارض مريضة بالسرطان . حتى انه لم يتمالك نفسه عن القول : سجن شطة الرهيب ، ما اروعه !

فوجدتني اهمس وانا مشرئب العنق هلعا : ما شاء الله !

قال : مدير السجن هو الذي يشاء فانزل اوصيه بك .

ـ ٤ ـ

كيف وجد سعيد نفسه وسط حلقة عكاظية ـ شكسبيرية

نزلنا امام باب السجن الحديدي فهبط العسكر من عربة الكلاب وهرع ثلاثة منهم نحوي فأحاطوا بي كالاثافي الثلاث . واما الرجل الكبير فتصدر الموكب امام الباب . فما ان طرقه طرقة واحدة حتى نبح كلب من الداخل فانفتح .

فاذا بمدير السجن ، بلحمه وبشحمه ، وهو ذو لحم وشحم كثير ، يهرع لاستقبالنا وامامه كلبه البولدرغ المدلل . هذا يهش وذاك يكش . فلاعبا الكلب تارة وتطبطبا على الظهر اخرى حتى صعدا على درج وانا واقف في الساحة الداخلية تحيط بي الاثافي .

ثم استدعاني احدهم فصعد بي على الدرج الى دهليز ، فدهليز آخر ، فآخر ، حتى ادخلني مكتب المدير فاذا بهما يرتشفان القهوة بسرور مسموع .

فهش المدير في وجهي وقال : بوصاية صديقي العزيز ، الرجل الكبير ، سأعاملك معاملة خاصة . ولقد علمت منه ان

ماضيك ابيض ناصع البياض لا تشوبه سوى شائبة سوداء واحدة هي ذلك العلم الابيض الناصع البياض ، وأنك ولد مثقف وتروي عن شكسبير .

فانبسطت اساريري وانبسطت على مقعد .

فعاجلني بالقهوة وبالحديث عن شكسبير . فصار يتلو من خطبة انطونيوس امام جثمان قيصر فأتلو عليه ما غاب عن ذاكرته منها وهو يصيح : برافو ، برافو ! ثم قام عن مقعده واخذ يتصنع دور عطيل وهو يقبل ديدمونة القبلة القاتلة . فاستلقيت على الارض ديدمونة . فقال : قم ، لم يحن اوان ذلك بعد ! فقمت وقامت معي الهواجس .

قال : ولكننا امام السجناء سنعاملك مثلما نعاملهم ، وانت فاهم .

قلت : فاهم يا سيدي ! ونظرت الى الرجل الكبير مطمئنا فرد علي بأحسن منها .

فضغط المدير على زر فأقبل احد الحراس . فصافحت المدير ثم صافحت الرجل الكبير الذي اوصيته بزميلي يعقوب خيرا. وظللت اشكر هذا وألهج بحمد ذاك حتى دفعني الحارس خارج المكتب . فلما اوغلنا في الدهليز الثاني قلت في نفسي : اصبح هذا الحارس صديقي واخي فقد عبرنا سوية في دهليزين في سجن واحد ، كالمشاركة في العيش والملح . فقلت له : مدير عالي الثقافة !

قال : فعم كنتما تتحدثان ؟
قلت : عن شكسبير وعطيل وديدمونة .
قال : وتعرفهم ؟
قلت : اروي عن الاول واستلقي كالثالثة .

قال : يا حبذا . .

حتى ادخلني في غرفة معتمة خلو من النوافذ وجرداء من اي أثاث . فلما اضاء قنديل كهرباء في وسط السقف ، اوهى من نار جحا ، رايتني واقفا في وسط حلقة من السجانين العراض الطوال ، كل سجان بعينين ناعستين اثنتين وبساعدين مشمرتين اثنتين وبفخذين غليظتين اثنتين وبفم واحد مفتر عن ابتسامة كشراء كانما طبعت جميعها في قالب واحد .

فظللت احاول ان اطبع على فمي الابتسامة نفسها فينهار الجانب اليساري من فمي ، فأقومه ، فينهار الجانب اليميني ، فأقومه ، فأحس بشفتي السفلى كلها تنهار ، فأقومها ، فتصطك اسناني .

وفيما انا في هذه الرياضة الشفهية سمعت الحارس الذي اقتادني الى هذه الغرفة العبقرية يقول لعسكر الافخاذ: ويروي عن شكسبير ايضا !

فكانت اشارة البدء بسوق عكاظية لم يشهد تاريخ العرب مثيلا لها منذ ايام داحس والغبراء .

بدأها احدهم قائلا : شكسبيرنا يا ابن الكلب ! ثم لكمني لكمة مهولة . فتلقاني آخر قائلا : خذ يا قيصر ! فأخذت اتمايل نحوهم حتى ملوا اللكم فأعملوا الرفس فصرت اتدحرج تحت اقدامهم فيتداولونني فيما بين اقدامهم فأكون تارة اسرع منهم حركة فأشعر بعدة افخاذ تنيخ على صدري دفعة واحدة . فأصرخ فلا اسمع سوى اصوات مكتومة صادرة عن ضرب ولكم ورفس لم اعد اشعر بأنها تصيبني بل اسمعها قادمة من مكان بعيد . وكانوا قد توقفوا عن انشاد الاشعار الشكسبيرية وانصبوا على شعر الآهات : يتأوهون عزما فأتوه خورا . يلهثون والهث حتى شعرت بأحذية تقطع انفاسي فغبت عن الوعي من شدة القهر .

وآخر ما سمعته منهم ان اهلا وسهلا بشكسبير . فعلق بي هذا اللقب بين زبائن السجن وفي اوساط الخريجين .

ـ ٥ ـ

سعيد في بلاط ملك

كان النهار يولي الادبار ، او هذا هو كل ما رايته منه ، حين ايقظتني يد تصافح يدي . فاذا انا ممدد على فراش من القش في غرفة معتمة منخفضة السقف لا ينيرها سوى نور من النهار يتيم يحاشر قضبانا حديدية متشابكة على كوة وحيدة في اعلى الحائط فلا يدخلها الا جريحا .

وكانت اليد الى يساري تصافح يدي وتشد عليها صبرا . فوجدت انني عاجز عن تحريك اصابعي فحركت راسي انظر الى يساري ففام بصري على جسم فارغ الطول ممدد الى يساري على فراش مماثل من القش ، عار الا من زي ربه وقد طلي بما حسبته ، لاول وهلة ، الدهان الاحمر القاني .

ولولا عينان اثنتان صوبتا نحوي بلا حراك ابتسامة تشجيع سرية ، ولولا يد تشد على يدي ان اشتد ، لحسبت ان الجسم الممدد الى يساري جثة بلا حياة .

قلت : اهلا ! فخرجت : آها !

فسمعت صاحب الجسم الملتف بعباءة الملوك الارجوانية يهمس : ما شأنك يا اخي ؟

قلت : هل هذه هي الزنزانة ؟

فسأل : اول مرة ؟

قلت : هناك غرفة بلا نوافذ ..

قال : وهناك امل بلا جدران .

قلت : وانت ؟

قال : فدائي ولاجيء . وانت ؟

فتحيرت في هويتي كيف انتسب امام هذا الجلال المسجى الذي حين يتكلم لا يئن ويتكلم حتى لا يئن . هل اقول له انني كبش ومقيم ؟ ام اقول له : دخلت الى بلاطكم زحفا ؟

فسترت عورتي بأنين طويل .

فتحامل على نفسه فاذا هو منتصب امامي بقامته الفارعة حتى رأيته يحني راسه كي لا تصطدم بالسقف او كي ينظر الي .

وصاح : كف يا رجل !

قلت في نفسي : ها قد اصبحت رجلا بعد ان ركلتني ارجل الحراس .

وكان ظاهر الشباب لم تزده عباءته الارجوانية الا شبابا .

ـ مالك يا اخي ؟

لو كنا التقينا في الخارج هل كان يناديني بيا اخي ؟

وشيء في عينيه اعادني عشرين عاما الى وراء ، الى ملاعب الصبا ومدارج شارع الجبل . وفي ندائه ، ما لك يا اخي ، سمعت صراخ يعاد القديمة ، والعسكر يلقونها في سيارة الترحيل : هذه بلدي ، داري ، وهذا زوجي !

فامولت كالاطفال .

ـ اصبر يا والدي ..

فلم اتوقف عن البكاء . الا انه كان اعتزازا وامتنانا ، بكاء الجندي يمنحه قائده وسام الشجاعة .

ـ تشجع يا والدي ..

دوسي ، ايتها الاحذية الضخمة على صدري ! اخنقي انفاسي ! ايتها الفرقة السوداء اطبقي على جسدي العاجز ! فلولاكم لما اجتمعنا من جديد . الحرس الفلاظ ، لو كانوا يعلمون ، هم حرس الشرف في بلاط هذا الملك . والفرقة السوداء الضيقة هي البهو المفضي الى قاعة العرش !

اصبحت اخاه . اصبحت والده . فأعيدوا ابتساماتكم الى قوالبها ايها العسكر !

وهزني اعتزاز لم يهزني منذ هتاف يعاد : هذا زوجي !

انا والدك ايها الملك . فلي ولد ، مثلك ، الا ان عباءته من مرجان البحر .

ولم اشأ ان اخبره بأنني من حيفا فيطول الشرح . فقلت : من الناصرة .

قال : اهلنا الشجعان .
ثم سأل : شيوعي ، بالطبع ؟
قلت : بل صديق .
قال : انعم واكرم .

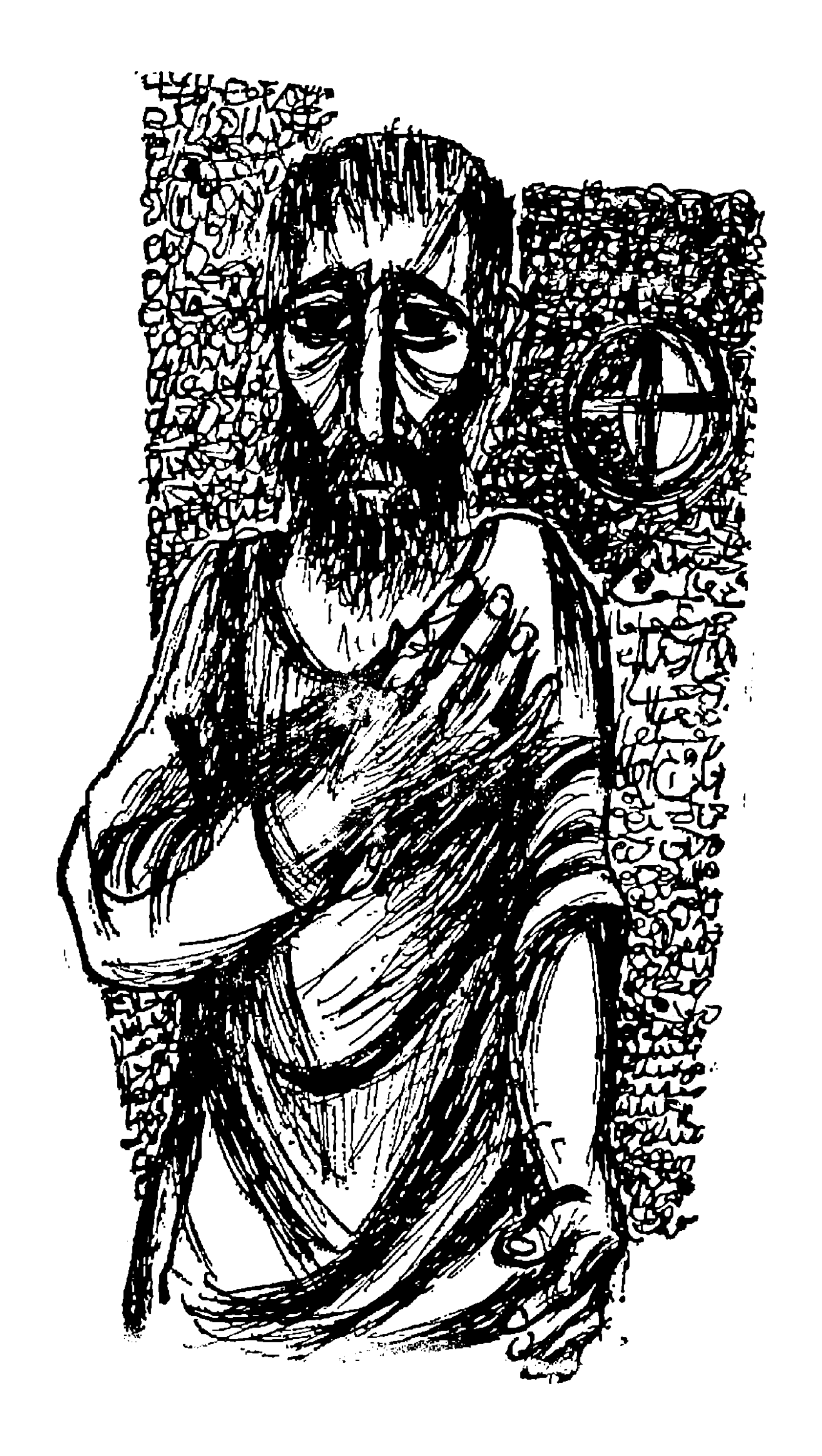
وضمد جراحي بالحديث عن جراحه . وظل يوسع في الكوة الضيقة الوحيدة حتى رأيتها في عرض الافق الذي لم أره من قبل . واصبحت قضبانها المتشابكة جسورا نحو القمر ، وما بين فراشي وفراشه حدائق معلقة .

وكنت احدثه عن نفسي بما كنت احلم به عن نفسي . وما كنت كاذبا . انما تحاشيت ان ادنس جلال هذا المقام بخصوصيات جردني منها السجانون حين جردوني من ملابسي الخصوصية . ها انذا متجرد امام متجرد . فكيف تخرج يا آدم من الجنة بمحض ارادتك ؟

الا أن الحراس لم يمهلوني . فقد جاؤوا واخرجوني من الجنة ونقلوني الى القاووش .. وهو قاعة طويلة في السجن يرقد فيها السجناء متراصين كل على برشه . وهو سرير حديدي فوقه فراش من القش . فبقيت عدة ايام ارتكب المخالفات لعلهم ينقلونني الى الزنزانة فألتقي ذلك الشاب الذي ناداني بيا والدي . ولكنهم لم يفعلوا .

وعلمت من السجناء انه فدائي فلسطيني قادم من لبنان اسره العسكر جريحا .

وقالوا ان اسمه هو سعيد . فقلت : عاشت الاسامي . فقالوا : ولكنه لم يتسم بشكسبير . وابتسموا مواسين . فانشغلت بتضميد جراحي وبالبحث عن سعيد الاول حتى التقيت اخته ، بعاد الثانية ، وانا خارج من السجن مطلق السراح للمرة الثالثة .



- ٦ -

سعيد ينشد أنشودة السعـادة

فالــذي يدخل الى السجن ، في بلادنا ، يصبح حاله كحال المكوك في يد الحائك : داخل خارج . واما حائكي فهو الرجل الكبير . لم يشفع بي ماضيّ الابيض بل زاد سوادا حاضري سوادا . حتى رايت باب السجن الحديدي بابا بين ساحتين في سجن واحد ، ساحة داخليــة اتمشى فيها ساعـــة ، فأستريح ، وساحة خارجية اتمشى فيها ساعة ، ثم اروح .

وفيما انا في مدار هذا الصاروخ المكوكي جاءني الرجـل الكبير مهددا بأنهم سيظلون ورائي من سجن الى سجن حتى أهلك حبيسا او طليقا أو ان اعود الى خدمتهم .

ـ حلّوا عني واركبوا غيري !

ـ هل تتوهم اننا نجد امثالك ملقين على قارعة الطريق ؟

ـ قضيت نصف عمري في خدمتكم . فدعوا البقية اعيشها كبقية خلق الله ، لا اهش ولا انش .

ولكنه افهمني ان هذه الخدمة لا فكاك منها حتى بالموت . وقال : ابوك اورثها لك وستورثها لاولادك من بعدك . وسوف يلعنونك الا ان ذراعنا الطويلة ستنالهم ، جيلا بعد جيل .

وهددني بأن الناس لن يؤمنوا بتوبتي بل سيقولون ان العرق دساس وان من شب على شيء شاب عليه ، وبأنني لن اجد ملاذا غيره . وهددني بالسجن . وهددني بالتعذيب . وهددني بالموت جوعا .

ولكنني لم اجع . فقد بسطت ، في زاوية في وادي النسناس ، بسطة كنت ابيع فيها الخضار . . فاذا جاء موسم البطيخ بعته احمر حلو المذاق على السكين . فلما سلطوا علي عساكر البلدية حليت افواههم . فلما رجمني اولاد الحارة ، على اعتبار شهرتي الشهيرة، استحليتها منهم فتركوني احل في الحارة مطمئنا .

غير ان الرجل الكبير لم يحل عني . فاستكتب ورقة يأمرونني فيها بالاقامة الجبرية . فأخفيتها حتى يظل عساكر البلدية يجبرون بخاطري . فاذا بالرجل الكبير يرسل عساكره فيداهمونني على بسطتي، في عز الظهر، فيقتادونني الى السجن متهمينني على رؤوس الاشهاد بأنني خالفت امر الاقامة الجبرية وسافرت الى شفاعمرو اتسوق بطيخا وان هذا الفعل يطيح بكيان الدولة . فالذي ينقل البطيخ سرا ينقل الفجل سرا ، وبين الفجل والقنابل اليدوية مجرد لونه الاحمر . والاحمر ، على كل حال ، ليس الازرق والابيض . وبالبطيخ تستطيع ان تنسف كتيبة كاملة ، اذا اخفيت فيه قنابل نعل ، يا بغل !

فأجابهم البغل : ولكنني افتحها على السكين !
قالوا : والسكين ايضا . .

فلما انتشر الخبر بأن ورقة الاقامة الجبرية قد جاءتني ازداد الاقبال على بسطتي حتى جاءني شاب وقد تأبط صحفا . حيى وقال :

ـ جاءتك ؟
قلت : جاءتني منذ زمن طويل .
ـ فلماذا لا تقرأ الجريدة ؟

قلت : لانكم لم تجيئوا .

فقمت وعلقت ورقة الاقامة الجبرية على جدار البسطة . فلم يمض يومان حتى جاءت الشرطة ، وابلغتني بأن الحاكم تلطف والغى امر الاقامة الجبرية . وان دولتنا دمقراطيـــة . ثم انتزعوا الامر من على الجدار واعادوني الى السجن قائلين انني حقرت أوراق الدولة الرسمية .

وقال كبيرهم : لو كنت في بلد عربي هل كنت تجرؤ عـــلى التباهي بورقة الاقامة الجبرية ؟ ان دمقراطيتنا لا تصلح لكم .

وذلك وانا في طريقي الى السجن .

وفيما انا خارج من الساحة الداخلية الى الساحة الخارجية مطـلق السراح ، وقفت على طرف الطريق من بيسان الى العفولة استوقف سيارة تحملني . فاذا بسيارة خصوصية على رقمها حرف « ش » بالعبرية اشارة الى انها من مواليد « شخيم » ، وهي نابلس لا غير ، تتوقف فجأة امامي .

ويدعوني سائقها الى الصعود فأصعد شاكرا .
وكان أن جلست في المقعد الخلفي وحيدا وانا مستوحد . وكانت فتاة جالسة الى جانبه ولم ار منها سوى شعر فاحم السواد كشعري بلا شيب . فقلت في نفسي:انا في ايش وفكري في ايش .

وما اجتزنا طرفا من الطريق حتى دهمني السائق بالسؤال: كنا نعود قريبا في سجن شطة فأخبرنا الزملاء بانك التقيت

سعيدا . ولكن المدير انكر وجوده . فهل تعرف له من مكان ؟

فانقبضت نفسي من هذا السؤال . فتحسست مقبض الباب كي انزل من هذه السيارة الملفومة، الا انها كانت مسرعة. فأسرعت اجيب ، وانا مذهول :

ـ انا سعيد !

فالتفتت الفتاة ذات الشعر الفاحم السواد نحوي لفتة زوبعية وهي تصيح :

ـ بل اخي سعيد .
ـ يعاد !
ـ حبيبي
ـ يعاد !

أو هذا ما احسب الآن انه قد جرى بيننا . اما في تلك اللحظة ، التي كانت اقصر من اللحظة ، فانني لم اكن اسمع شيئا ولم اكن ارى شيئا سوى عينين خضراوين يتألق بؤبؤاهما بنور سماوي افتقدته عشرين عاما .

لقد رأيت يعاد ، عشرين عاما من يعاد دفعة واحدة ، في عينيها وفي صوتها وفي شعرها وفي قامتها . فكيف تشعر سمكة اطاحت زوبعة ، دفعة واحدة ، بثلج تراكم على سطح نهرها عشرين عاما ؟ يا تراب القطب الجنوبي قل لهم كيف يكون شعورك لو انحسرت من فوقك ثلوج الدهر دفعة واحدة! يا لظى البراكين ارو لهم حكايتي ! ويا صخر بلادي انفجر ينبوعا !

اما انا فانفجرت بكاء .

فأوقفا السيارة . فنزلت يعاد وانتقلت الى المقعد الخلفي بالقرب مني . فأخذت يدي بين يديها فوسدتهما صدرها ثم وسدت رأسها كتفي فامتزجت دموعنا . وكان السائق يزغرد ببوق سيارته ويسير بها بطيئا كأننا في موكب عرس .

ــ سعيد ، سعيد .
ــ يعاد ، يعاد .
ــ أخيرا وجدته
ــ ولن تفقديه ابدا .
ــ كيف حاله ؟
ــ على ما ترين ، يا يعاد !

واستحوذتني رغبة جامحة في ان اصفق ، في ان اغني ، في ان أزغرد ، في ان أصرخ حتى تنهار من على صدري طبقات الخنوع والمذلة والحاجة ، والصمت ، نعم يا سيدي ، عظيم يا سيدي ، امرك يا سيدي ! فينطلق قلبي من صدري ، حرا ، يطير ، يحلق في اجواز النسور ، ينادي على الناس : مثلكم انا يا ناس ، شجاع مثلكم ، ومثلكم لي قدمان ثابتتان على الارض وظهر مستقيم وقامة طويلة ورأس في السماء . سعيد بشجاعتي مثلكم يا ناس . يعاد الى جانبي يا عالم ! صغيرة كعصا الراعي ، جديدة كالحلم القديم !

عشت الاعوام العشرين لوحدي . عشتها عن يعاد . عشتها حتى الثمالة ، حتى القعر . شربت كأسها المر كله وحدي . فلم يبق لها منه اية قطرة . انقذتها من هذه السنوات العشرين المريرة ، فبقيت يعاد صبية في العشرين وبدون عشريني . عادت الي كما كانت ، هي هي ، تضحك وتبكي ، تتحدى وتحب ، وتناديني : سعيد !

سعيد انا يا عالم ! اسمعي يا دنيا ، من الخط الاخضر حتى الافق الازرق ، القفار والحقول ، القبور والسماء : لقد انطلقت خارج الساحتين حرا ، الداخلية والخارجية . اصبحت حرا .

سعيد ، انا سعيد !

ولكنني فعلت امرا آخر بالمرة . فبدون ان ادري بما دفعني اندفعت ففتحت باب السيارة والقيت بنفسي منها ، ويدي بيد يعاد لا اتركها . فوقعنا على التراب الجاف وانا غائب عن الوعي .

— ٧ —

وجهتا نظر في مصيبة اسمها الطوق !

أيقظني عطر القرية ، الذي عبق به ليلها الانيس . فوجدتني مستلقيا على فراش من الصوف نظيف . فتخيلت انني نائم على صدر امي ، في بيتنا العتيق . وكانت تأتيني رائحة المونة وخابية الزيت وطين الطابون ، واصوات همس مكبوت ، وانفاس اطفال نائمين بلا كبت ، وخيالات نساء قرويات وهن رائحات غاديات يحملن أطباق الارز المعصفر وفوقه لحم الدجاج ، ومائدة خشبية منخفضة في وسط البيت العتيق .

فناديت : اماه !

فسمعت النسوة ينادين على يعاد ان والدها قد استيقظ . فأخذت اتلفت حولي بحثا عن والدها فلم اعثر له على اثر .

— اين انا ؟

فأخذن يحمدن الله على نجاتي وهن منسحبات خارج الغرفة باشارة من يعاد . وسمعتهن يرجونها ان تسرع قبل ان يبرد الطعام .

وجثت يعاد على الحصير الى جانبي وقالت : صن سري

بكرامة اخي سعيد .

فقلت : بل اصونك حتى من الموت !

فأخبرتني بأننا في قرية « السلكة » المرجية . وهذا الاسم غير ظاهر على الخارطة لا لانه زال من الوجود ، ومثل هـذا الامر موجود ، بل لانه غير موجود . فقد استعرت لهـذه القرية ، التي آوتنا ، اسم السلكة ، ام سليك بن السلكة ، الذي

طاف يبغي نجوة
من هلاك فهلك
فالمنايا رصـد
للفتى حيث سلك

وذلك حفاظا على سر هذه القرية المرجية العجيب الذي ، على الرغم من انه جاوز الاثنين ، لم يجاوز حدود القريـة عشرين عاما ، عن فتى لم يطف كالسليك بن السلكة في الارض نجوة ، فهلك ، بل اقام حتى شاخ ، فهلك . ولكنني افردت لهذا السر فصلا خاصا سأرويه عليك حين يجيء .

واما سر يعاد ، الذي ناشدتني أن اصونه ، فهو ادعـاؤها امام مضيفنا انني والدها .

قلت ــ قيل : رب اخ لك لم تلده امك . وانا اقول : رب والد لك لم تتزوجه امك .

قالت : رحمها الله ، انت في ايش ونحن في ايش .

فقلت : فما ابقاك معي ، اذن ، واين السائق ؟

فأخبرتني بأننا حين وقعنا من السيارة وكانت ، سلم الله ، تسير بطيئا ، غبت عن الوعي دون اذى . واما يعاد ، « شكرا لك يا والدي » ، فقد كنت احوطها بـذراعي فوقعت علـى صدري فلم تتأذ . فهرع نحونا رجال ونساء من قرية السلكة؛

كانوا يعملون في اراضي الكيبوتس القريبة من موقع وقعتنا
وكان على راسهم مضيفنا ابو محمود الذي اكرم وفادتنا
وسافر معنا الى قريته ، فبيته ، حيث وجدوا انني غائب عن
الوعى اعياء فحسب . فتركوني استريح حتى اتماثل .

واما سائق السيارة ، وهو صاحبها ، فهو صديق كريم الا
انه اضطر للعودة الى نابلس ، فانه محظور عليه المبيت في
اسرائيل وسيارته معه . وقد تركنا وهو شديد التأثر مما بدا
منه من اهمال . فقد توهم انه هو المسؤول عن سقوطنا حين
لم يحكم باب السيارة اغلاقا .

فأحكمت اغلاق فمي عن هذا الوهم خوفا من وقعة أخرى.
اما يعاد فآثرت البقاء معي حتى يعود الي رشدي فأعيد
اليها اخاها سعيدا الذي جاءت الى شطة من بيروت تبحث
عنه .

ــ وسجين زندة المقيم (الذي هو انا) ، يا يعاد ، الا تعودين
اليه ؟
ــ الآن ، يا والدي ، وقت العشاء . قم واكرم الناس الكرام
الذين اكرمونا .

واقبل اهل الدار يسلمون على القادمين «من عند العرب».
وكانوا يؤهلون بنا تأهيلا عظيما ، ويتلقفون كل كلمة نقولها
بحرص شديد كما لو انها بضاعة نادرة مهربة . وتولت يعاد
الرد على اسئلتهم . واما انا فاكتفيت بالقيام وبالقعود وبيا
حيى الله وبالسلام عليكم ، خوفا من ان يتعثر لساني بكلمة
في غير موقعها فأقع .

وكانت يعاد بين الرجال رجلا . حسنها شباب ، وشبابها
حسن واحسنهما المامها الحسن بحديث الرجال . وكنت انظر

نحوها ماخوذا بها ، فاسمع الرجال يدعون الله ان يبقيها لي
فاحمده، وادعو له واغض الطرف عن سري .
وقالوا انهم كتموا امرنا ، ما وسعهم الكتمان ، عن بقية اهل
القرية حذر الوشاة وان يكون قدومنا غير قانوني .

واخبرنا ابو محمود ، وهو رب البيت ، بأن القرية وقعت ،
قبل عام ، في الطوق سبعة ايام بحثا عن متسللين . فلما لم
يجدوهم اقتادوا اربعة عشر رجلا الى السجن وفكوا الطوق
عن القرية .

فما هو الطوق ؟

قال : يقوم البوليس بتطويق القرية ويسد منافذها ويفرض
منع التجول فيها . ثم تهدر سياراته المصفحة فيأزقة القرية.
وينتشرون ، وفي اثرهم كلاب الاثر ، يدخلون البيوت ويروعون
الاطفال ويدلقون خوابي الزيت على عدل الطحين خوفا من ان
يكون المتسللون قد تسللوا الى الخوابي والعدل . فاذا سمعنا
صراخا في بيت تسللنا اليه في حلكة الليل ، فليل القرية حالك ،
وهذا حاله عشرين عاما ، يسدلونه سترا لهم فنتستر به
عنهم ، فاذا قال أهل البيت المنكوب : اخذوا سعدا ! قلنا :
انج سعيد ! فيخترق الطوق برعاية ليلنا الساتر اما منجاة
او في طلب الرزق .

قالت : افلا من مجير ؟
قال : ما من مجير سوى الشيوعيين واهل الكيبوتس !

وكنت لاحظت ان هؤلاء القرويين ، ما ان يلتقوا قادما من
« عند العرب » ، حتى يحسبوه شيوعيا او من الحمولة .
فتراهم يوسعون له من صدورهم الواسعة . فضحكت في
سري ثم قلت : يا حي الله !

وابو محمود قال : اما الشيوعيون فيجرؤ نوابهم على اختراق الطوق . فيدخلون معنا فيه مؤاسين ومشجعين ان اصمدوا . ويجمعون الحقائق . ويصيحون في الكنيست . وهو مثل البرلمان عندكم (فضحكت في سري ثم قلت : يا حي الله !) ويضطرون الوزير الى الرد . فتخترق مصيبتنا جدار الصمت الرسمي . ويسيرون على رأس مسيرات في الناصرة وتل ابيب يهتفون في اثنائها : فكوا الطوق ، فكوا الطوق ، اليوم تحت وبكره فوق ! وينشرون عن طوقنا في صحفهم . ويقولون لنا ان صحف الاحرار ، في انحاء العالم ، تنقل عنهم فيطلق طوقنا الضمير العالمي الذي تحاول الصهيونية ان تطوقه، لولا الشيوعيون . فهل قرأتم عن طوقنا في صحف الاقطار العربية التي لم تطوقها الصهيونية ؟

قالت دعد، وعيناها تبرقان ايذانا برعد : ان صحف الاقطار العربية تطوقنا بالانتصارات، كالاطواق فوق رؤوس قديسيها، فلا يبقى مكان فيها لطوقكم . وما انفكوا يطوقوننا بأطواق الانتصارات حتى اختلط الحابل بالنابل فلم تعد تفرق بينها وبين اطواق الزهور على القبور .

قال : ولكن الصهيونية تقيم الدنيا وتقعدها على خدش اصبع ؟

فقصف الرعد . فقالت: القضية ، يا سادة، هي وجهة نظر. فأنتم ترون في ما اصابكم مصيبة . اما نحن فان الطوق هو حياتنا . تقولون : من المهد الى اللحد . اما نحن فنقول : من الطوق الى الطوق ! فلا تنتظروا من الذين يعيشون حياتهم كلها في التطويق والتفتيش ، نهب كلاب الاثر حتى ضياع الاثر، ان يشعروا بمصيبتكم التي اصبحت حياة امة بأسرها ، من الخليج حتى المحيط !

فلم اتمالك لساني الا بعد ان قلت : من سواك بأخيك ما ظلم !

فاشرابت الاعناق نحوي منزعجة . فشعرت بأنني وقعت. فرحت احيي السامر على اليمين وعلى اليسار وانا اقول : يا حي الله ، يا حي الله !

فهمهموا بما يشبه التحية .

قالت : واهل الكيبوتس ؟

قال : لا يمضي اسبوع على التطويق حتى تتوق اراضيهم الى ايدينا الماهرة . فيتوسطون لفك الطوق فنعود الى العمل في حقولهم .

قالت : لماذا انتم ؟

قال : لانها كانت حقولنا . انبتناها وسوف ننبتها . تحنو علينا كما نحنو عليها . واما هذا الحنو فقد عجزوا عن مصادرته .

فانفلت لساني من عقاله مرة اخرى . ووجدتني اصيح مندهشا : فالخضرة نبت سواعدكم ، اذن ، لا كما ادعى الرجل الكبير !

فاشرابت الاعناق نحوي ، مرة اخرى . وتهامس السامر بالسؤال : من هو الرجل الكبير ؟

الا ان يعاد عاجلتهم بابتسامتها الساحرة وبأن والدها يتحدث عن ذلك الجندي ، الضخم ، ولذلك فهو رجل كبير ، الذي دخل معه في موضوع السياسة ونحن ندخل في الضفة الغربية عبر الجسر .

وطمأنتهم يعاد على اننا قادمان عبر الجسر باذن اسرائيلي رسمي . وسوف نبقى في البلاد شهرا نقضيه بحثا عن اخيها سعيد الذي جاءنا انه رهين في سجن شطة .

قالوا : الرهيب ..

قلت : اسألوني ..

الا ان هرجا ومرجا في الخارج انقذاني من هذه الوقعة الاخيرة ..

- ٨ -

السر الذي لم يمت بمـــوت السر

رأينـــا مضيفينا يغدون ويعودون وقد اشتد عليهم التأهيل بنا كما لو أننا حللنا منزلهم توا حتى ضاع ، في ذلك ، صوت الضوضاء في الخارج . فحاولوا ان يضيئوا وجوههم المنطبقة على امر خطير بابتسامات ذكرتني بأغصان الشجر فوق خوذة جندي او فوق دبابته .

واردت ان اسأل : ما الخبر ! لولا قدم يعاد ، التي داست على رجلي ، فكتمت انفاسي .

واختفت النســاء عن أعيننا . واطفال كانوا نائمين في زاوية استيقظوا فحملوا اغطيتهم على ظهورهم وغابوا عن أنظارنـــا مطأطئي الرؤوس دون أن ينظروا في وجوه آبائهم .

وكان رجال ، لم نرهم من قبل ، يدخلون المضافة فيجلسون بعد ان يرحبوا بنا . واما رجال الدار فكانوا يخرجون واحدا واحدا فلا يعودون .

سوى ابي محمود الذي تسمر في مكانه وقد اقام ظهره فلا تعرفه جالسا ام قائما .

وجثا فوق صدورنا صمت ثقيل كالذي يؤذن ، كما قيل ، بالعاصفة . فأردت ان اقول : « هذه هي الشجرة التي تصمد لها ! » لولا قدم يعاد الضاغطة بعناد على اسناني .

واتانا من بعيد نحيب امراة مخنوق الصدى. فاشتد ترحيب الغرباء بنا واحدا بعد واحد في حلقة لا فكاك منها ، يقومون ويقعدون فأقوم واقعد دون ان انجح في فك قدمي من تحت قدم يعاد ، او لساني المتململ من عقاله .

حتى رأيت مضيفنا يخرج ، في مشية ارادها عادية فجاءت عسكرية ، ثم يعود وهو يقول : لا حول ولا !

فأطلقتها : خير ان شاء الله ؟

قال : شيخ جليل من اهلنا وافته المنية الليلة . فتبكيه النسوة .

فلما وجدت ان كلامي محمول ، سألت :

ـ المختار ؟

فأجاب شيخ من الغرباء : اختاره ربه الى جواره وهو ارحم الراحمين .

فأوغلت في جراتي فقلت : لو اخذهم جميعا !

قال : كلنا اليها .

فقالت : رحمه الله . ومن خلف ما مات . وكان هاجس قد انتابني ان ما بدا على القوم من اضطراب ، على اثر الهرج والمرج في الخارج ، راجع الى ان طارشا في الخارج جاء يبلغهم بحقيقة امري . فلما استوعبت ما جاء به مضيفنا عن وفاة شيخهم تنهدت مستريحا ووجدتني افلت : الله سلم !
فلم تلحقني يعاد بقدمها ، هذه المرة ، الا بعد ان قضي الامر. والغريب في هذا الامر ان القوم الغرباء همهموا مستحسنين

دعائي وراضين عنه .

فانطلقت من تحت قدم يعاد افسر لهم فلسفة عائلتنا ، المتشائل ، وان هناك موتا اسلم من موت ، وموتا اسلم من حياة . وان اخي البكر ، حين قطعه اونش في « بور » حيفا اربا ، دفناه جثه بلا رأس .

ومرة اخرى بدرت من القوم الغرباء همهمات الاستحسان والرضى عن فلسفتي العائلية العريقة حتى انهمكت في ترتيب كلام في راسي يليق بسؤالهم عن اصول اشجارهم العائلية لعلنا أن نلتقي في اصل او في فرع . فكلنا من آدم .

غير ان يعاد اوقفتني عن هذه الرياضة الذهنية ـ التاريخية وهي تحوطني بذراعها وتشدني اليها شدا خفيفا وتهمس في اذني : عمي سعيد ، عمي سعيد ، جئت كي ازورك !

فصرخت : تزورين فحسب ؟

فأجاب مضيفنا ابو محمود : لا حاجة الى ذلك . لقد دفناه وانقضى الامر .

فقد ظن بأننا نتحدث عن شيخه الميت لا عن شيخنا الحي .

فسألت : الليلة ؟

قال : الليلة .
ــ ولماذا لم تنتظروا طلوع الفجر ؟
قال : ان فجره لا يطلع غدا .

فعن اي فجر يتحدث ، اذن ؟ قلت ، وانا محتار : انني لا افهم من كلامك شيئا .
قال : ولا هم يفهمون !
فصرخت يعاد : نحن اصدقاؤكم ، فأفصح . ان الصمت يخنقكم .
قال : كل ما حوالينا ، نحن اهل القرى ، صامت : الارض

والدواب والمحراث . ان لغتنا هي الصمت . فنتوارثها جيلا جيلا . فاذا كنتم تتحدثون بهذه اللغة تفهموننا ونفهمكم .

قالت : الا تزغردون ؟

قال : الامر اعقد مما تتصورين ، يا اختنا القادمة من بيروت . لقد زغردنا وزغردنا وزغردنا ، مثلما لم يزغرد احد . ولكن اعراسنا كانت تتحول ، في كل مرة الى مآتم . والذي كنا نحسبه صديقنا كان يخطف العروس ويهرب الى بيروت!

قالت : ان اصدقاءكم ، اليوم ، مختلفون . فهم اصدقاء مخلصون . الم تذكر الشيوعيين ، مثلا ، بالخير ؟

قال : على الرأس وفوق الحاجب . الا ان غذاءنا الاساسي هو زيت الزيتون . نستحلي اعواد الخرفيش الا انها تنقصف. لا بأس بالبرق ولكنه لا يزيل ليلناالصامت . سنظل نجربهم ونجربهم ونجربهم ، في صمت ، حتى يطعمونا من زيتونهم . صياح الديك لا يطلع الصباح . ولكن ديوكنا ستصيح حين يطلعونه . فعلى اصدقائنا ان يتعلموا النطق بلغتنا ، لغة الارض والدواب والمحراث ــ الصمت الدؤوب !

وكان القوم الغرباء يهزون رؤوسهم ، بصمت ، استحسانا. واحببت ان اقاطعه قائلا : لو كان كلامك صحيحا لكنت انا ، سعيدا ابا النحس المتشائل ،الصامت ذلا ، صديق الفلاحين الاول !

لولا انني تذكرت ماضي النابح وانني كنت اتكلم بالوشاية ولا اصمت !

ثم اتتني خاطرة عجيبة حقا وهي انني ، على طول باعي

بالوشاية ، لم استطع ان اشي بصمت رجل صامت . فصمت!

وفيما انا في هذه المناجاة الصامتة ، بيني وبين نفسي ، اذا بامراه عجوز ، هزيلة كعود ذرة جاف ، تدخل علينا دامعة العينين وهي تصيح : السر مات،يا ابا محمود،فعلام تتستر!

فهرع ابو محمود نحوها واخذها بذراعيه ودفعها محاولا ان يخرجها الى الخارج . فأبت . فظل يحوطها بذراعيه وقد اسند راسه الى صدرها واجهش بالبكاء كالاطفال وهي تخفف عنه وتشاطره البكاء ونحن مذهولون والقوم الغرباء ينسحبون من المضافه واحدا واحدا فيبتلعهم الليل البهيم وقائلهم يقول: السر مات . ولكن علينا ، غدا ، ان نعيش !

قضينا تلك الليلة مستيقظين وابو محمود يروي لنا اعجب قصة سمعناها عن شاب ضرير من اهل القرية ترك قريته ، في عام ١٩٤٨ ، مع قوافل النازحين ، بلا قوافل ، الى بلاد العرب الواسعة . ثم تسلل عائدا الى قريته بعد قيام الدولة . فظل اهل القرية يحفظون فيما بينهم امر عودته . فآووه واطعموه . واحترف صناعة الحصير والمكانس . فزوجوه . وادعوا ان زوجه هي امرأة أخيه الثانية ، وان اولاده هم اولاد اخيه منها . وحفظوا السر هم واولادهم من بعدهم فتكاثر اولاده وتكاثر حفظة السر فلم يبلغ آذان السلطة على الرغم من تكرار التطويق طول الاعوام العشرين الماضية . وكان يموت مختار ويولون مكانه مختاراً فيختار لهم ما شاؤوا من الوشاية الا هذا السر الذي اصبح كالعرق الدساس لا يدسون على بعضهم البعض به،او كيقظة الضمير الذي يجب الا يوقظ.

حتى شاخ السر فوافاه الاجل الليلة فدفنوه صمتا وبكوا عليه صبرا .

ــ ومن تكون تلك المراة التي اقتحمت علينا المضافة ؟

ـ ام اولاده .

ـ ومن تكون لك ؟

ـ والدتي !

ـ خفف عنك . لقد عاش عمره ، رحمه الله !

ـ ولكنني لم اعشه . كل يقول هذا والدي . اما انا فأنكرته حتى اعيش .

ـ حتى يعيش .

ـ هذا هو سري الذي لم يمت بموته .
وكان الفجر قد طلع .

ـ ٩ ـ

عودة يعـــاد الى البيت القديـــم

بدأت الامور تختلط في عقلي عن يعاد حين بدأنا بتناول طعام الافطار ، فولا مخلوطا بالحمص ، في مطعـم في العفولة . فاستغربت يعاد ان يتقن اليهود ، القادمون مـــن اوروبا ، هذا الفولكلور العربي . فقلت لها : بل هم قادمون من بلاد العرب ولم يتغير عليهم شيء حتى ولا الشتيمـة ـ يشتمون ويشتمون بلغة الضاد .

ضحكت يعاد وشتمتني تحببا . قلت : هل تشتم البنت والدها ؟ قالت : بل انت عمي وفارس احلامي منذ الصغر .

قلت : والذي حولني ، بين ليلة وضحاها ، من ابيك الــى عمك ، سيعيد اليك ذاكرتك الليلة . فهيا الى حيفا نوصــل ما انقطع .

وفي السيارة ، التي حملتنا الى حيفا ، اخذت يعاد تلاطفني وتقول : سأفاجئك يا عمي مفاجأة . اما ان تكون سارة او ان تكون سيئة فأنت تحكم .

واخذتني كما يأخذ المعلم تلميذه واسمعتني حكاية لم استطع تصديقها . ولكنها ظلت تحكي ، وتحكي فلا اجد لحكايتها من جواب سوى : مستحيل !

قالت ان امرها اختلط عليّ . فيعاد ، التي انتظرتها ، هي والدتها . وقد ماتت .

ــ واما انا ، يا عمي ، فابنة يعاد التي انتظرتها .
ــ مستحيل ، مستحيل !
ــ هل اشبهها كل هذا الشبه يا عماه ؟
ــ مستحيل ، مستحيل !

وقالت ان والدتها كانت تذكرني دائما بالخير ولذلك سمت ابنها سعيدا باسمي ، وابنتها يعاد باسمها ، « حتى اذا عدت ، يا يعاد ، ستقولين له : لم تغيرنا الغربة » .

ــ ها نحن التقينا ، يا عماه . فهل تغيرنا ؟
ــ الصبا هو الصبا ولم يتغير . لكنني ارى ، ويا لمصيبتي ان الزمن الذي انتصر شبابك عليه قد انتقم من ذاكرتك . فكيف ينسى الحبيب حبه الاول ، والزهرة الفجر الذي برعمها ؟
ــ هل كنت تحبها هذا الحب كله يا عماه ؟
ــ احبك كما احب الشيخ ان يكون ماضيه حلما فيستيقظ. لقد استيقظت . فكيف اجدك تهذين في المنام ؟

واوغلت في اوهامي كغريق يوغل في مغارة تحت الماء يلوح له، في طرفها البعيد ، سراب نور .

قلت : حين تدخل بيتي العتيق فيشارعالجبل ستستيقظ.

فلما وصلنا اليه ، تأبطت ذراعها واخذت اصعد بها الدرجات ، التي دحرجوها عليها من قبل عشرين عاما ، وانا احسب نفسي عريسا في ساعة الدخلة .

القيت الاعوام العشرين الماضية في صندوق القمامة في ساحة الدرج وصعدت الى المنزل وانا اطير بجناحين من يعاد.

وكنت اهتف : ها نحن نعود عودة المنتصرين !

وكان الجيران يفتحون ابواب بيوتهم محيين ومستفهمين. فكانت تركض الى جانبي وهي ترد التحية وتقول متباهية : عمي بعد غياب العمر !

فأطلقت جارة زغرودة الحقتها الجارات الاخريات بزغاريد متلاحقة كتلاحق صفارات السفن في ميناء حيفا ليلة راس السنة .

فلما دخلنا المنزل قالت يعاد وهي مبهورة النفس : استرح، ايها المنتصر . اما انا فأعود اسيرة !

وسألت : لاي شيء زغردت النساء ؟
قلت : لعودتك .
ــ اسيرة ؟
ــ زائرة .
ــ فما يفرحهم ؟
ــ السجناء يحلقون ذقونهم ويتزينون ويفرحون في يوم الزيارة .
قالت : ما هذا وقت الفرح .
ــ حتى فرحة الزيارة تبخلين بها على هؤلاء السجناء ؟
قالت : كيف تأتي الفرحة بنعمة الفازي ؟
فأجبت : كما ينضج الطعام بنعمة النار .

فلما سألتني : من اين اتتك هذه الحكمة ؟
اجبتها : من يوم ما شكسبرني حراس السجن .
وحكيت لها حكايتي معهم وكيف التقيت اخاها في الزنزانة فسمعت منه كلاما جعلني ارى الزنزانة جنة وقضبان الكوة جسرا نحو القمر .

فكانت تضحك تارة وتبكي تارة . وتقول : اخبرني عن يعادك ؟ فأروي لها حكايتنا القديمة . واقول : هنا جلسنا . وهنا ، في هذه الغرفة ، ظللت يا شيطانة مستيقظة تنتظرينني وانا منكتم الانفاس في الغرفة المجاورة ، لانني اهبل ، حتى جاء العسكر .

ــ العسكر يطوقون الدار !

هذا ما سمعته من الجارة ، التي اقتحمت علينا الباب دون استئذان فوجدتني جاثيا على اربع تحت قدمي يعاد امثل وقعتي الاولى عن الدرج ، قبل عشرين عاما ، ويعاد تضحك .

فلم اقم من جثوتي .

ـ ١٠ ـ

في انتظار يعاد الثالثة

وأما يعاد فجلست على مقعد ووضعت رجلا على رجل ، جلسة الرجل ، وقالت : قم وناولني سيجارة ولا ترع !

ـ فيأخذونك كما اخذوك في تلك المرة .
ـ اخذوا والدتي في تلك المرة .
ـ فيأخذونك هذه المرة .
ـ الامر هذه المرة غيره في تلك المرة .
ـ ولكنهم لم يتغيروا .
ـ اذا لم يتغيروا فهي مأساتهم . اما نحن فتغيرنا .
ـ لن تستطيعي ان ترديهم . وسوف يأخذونك مني .
ـ الى اين ؟
ـ الى ديار الغربــة .
ـ بل انا راجعة اليها ، اخذوني ام تركوني . فهل لديك من حل ؟
ـ ان نختبىء لدى الجارة .
ـ الى متى ؟
ـ نفعل ما فعله الشيخ الضرير في قرية السلكة .

ــ عشرين عاما اخرى ؟
ــ حتى تتغير الامور .
ــ فمن يغيرها ؟
ــ اخوك سعيد قال : الشعب .
ــ الشعب وهو مختبيء ؟
ــ اناوانت نختبيء . اما اخوك سعيد فيكافح .
ــ فيهدي الحرية الى المختبئين ؟
وضحكت متهكمة ثم قالت : اذا عشت يا عمي سعيد فستكون ابن سبعين عاما حين تلتقي يعاد الثالثة . ولن تعرفها ولن تعرفك .
واجلستني الى جانبها :
ــ هل تحبني يا عماه ؟
ــ بحنين عمري .
ــ وهل تحب ان تتزوجني ؟
ــ حتى لا يفرقنا الموت .
ــ اتزوج شيخا في آخر عمره ؟
ــ سأعود الى البداية .
ــ مستحيل !
ــ فكيف يؤمن اخوك بأنهم سيعودون منذ البداية ؟
ــ سمعوا ذلك من شيوخهم . والشيوخ لا تذكر من البداية سوى عنفوان الشباب ، فتستحلي البداية . هل تعرف البداية ، حقا ، يا عمي ؟ ليست البداية ذكريات عذبة ، فحسب ، عن صنوبر فوق الكرمل او عن بيارات فوق ظهوركم ، او عن اغاني بحارة يافا . هل كانوا حقا يغنون ؟

هل تريد العودة الى البداية حتى تبكي على اخيك ، الذي قطعه الونش اربا اربا وهو يقطع اللقمة من الصخر ، مرة ثانية ومنذ البداية ؟
ــ اخوك سعيد قال انهم تعلموا من اخطاء من سبقهم فلن يرتكبوها .

ـ لو كانوا تعلموا لما تحدثوا عن العودة الى البداية .
ـ من اين لك هذا الكلام الكبير يا يعاد الصغيرة ؟
ـ من عمري الكبير الذي ينتظرني .
ـ فهل تتركينني ؟
ـ الماء لا يترك البحر يا عماه . يتبخر ثم يعود في الشتاء . ويعود انهارا وجداول . ولكنه يعود .
ـ فهل ابقى وحيدا ؟
ـ حتى ضرير السلكة لم يعش وحيدا . اذهب واصنع الحصر في قرية السلكة .

ولكنني لم اذهب الى قرية السلكة ، ولم اصنع الحصر لا في السلكة ولا في غيرها .

فقد اقبل العسكر . فبقيت في موضعي بلا حراك سوى اني وضعت يدي فوق عيني فاغمضتهما حتى لا ارى النهاية كما رايت البداية .

فشعرت وكأن ايدي العسكر تدفعني الى الخارج وتقذفني على الدرجات . فأجدني مرتميا في فناء الدرج . فلا استنجد بصاحبي يعقوب هذه المرة الذي اصبح يحتاج الى من ينجده .

واسمع من فوق ، في منزلي ، صراخا انثويا ، وصوت لطمات وركل وجلبة . وارى معركة حامية تدور بين يعاد والعساكر . واراها تقاوم وتصرخ وتركل بقدمها . واراها تعض كتف احدهم فيصيح من الالم ويولي بعيدا . واراهم يتكاثرون عليها ويدفعونها امامهم الى سيارة الترحيل واسمعها ، والسيارة تتحرك ، تنادي : سعيد ، لا يهمك ، فانني عائدة !

وفتحت عيني وشهقت قائلا : ها قد عدنا منذ البداية !

لكنني رأيت عجبا . رأيت ضابط الشرطة يقرأ في اوراق يعاد بكل احترام . وسمعته يعتذر لها عن الامر الجديد الصادر بالغاء الاذن بدخولها الى اسرائيل، وعن الزامها بالعودة ـ معهم ـ الى نابلس حالا . وقال انه عليها ان تعود ، غدا من حيث اتت . اي عبر الجسر .

وسمعتها تقول : لم انتظر منكم غير ذلك .

فأجابها : لم ننتظر منك الاقامة في بيت سعيد .
فصاحت : هذا بلدي ، داري ، وهذا عمي !
قلت في نفسي : سأحفظها مؤونة للعشرين القادمة .
قال : ممنوع .
فقالت انها لم تنتظر منهم سوى ما هم يفعلون . فكيف تنتظرون منا سوى ما نفعل ؟

فانحنى الضابط امامها باحترام عسكري وهو يقول : يا صغيرتي الحسناء لقد انتظرنا منكم اكثر مما تفعلون .

وودعتني يعاد مصافحة . ثم اقتربت بوجهها من وجهي وقالت : هل قبلت والدتي قبل رحيلها ، يا عماه ؟

قلت : حالوا ما بيني وبينها .
قالت : اذن ضاعت عليك القبلة الثانية .

ومضت .

- ١١ -

مسـك الختـام ، الامسـاك بالخازوق

قلت لك ، يا محترم ، انني لم اذهب الى قرية السلكة ولم اصنع الحصر لا فيها ولا في غيرها . فالذي جرى هو انني ذهبت وقعدت على ذلك الخازوق .

وجدتني ، مرة اخرى ، متربعا وحيدا على رأس ذلـك الخازوق الذي بلا رأس . كابوس يحط على صدري ليلـة ليلة ، بلا انقطاع ، فلا اقوى على ازاحته عن صدري او على ان استيقظ . خازوق في كابوس . والخازوق الحقيقي هو ذلك الوسواس ، الذي لم استطع ان افكه عني ، ان مـاذا سيحل بك ، يا ابن النحس ، لو ظهر انه ليس بكابوس بل خازوق واقع ؟

اضفت غطاء ثقيلا الى غطائي فاخترقته البردية . فأضفت آخر حتى السابع فاخترقتهم جميعا . فصرخت : من لي بذات الحسن ترفع عني هذه الاغطية ؟

ولكن العسكر اخذوها مرة اخرى . وكنت اتمتم باسمهـا

والومها على مصيري لوما شديدا . فهي التي اقنعتني بـأن خازوقي الماضي ليس بكابوس ، فكيف اومن بأن خازوقـي الحالي هو كابوس ؟

عادت يعاد فاذا بها ليست يعـاد . باقـة ورد في عرس المستقبل واكليل زهور ناضرة على قبر الماضي في وقت معا . انتظرت عودتها عشرين عاما فلما عادت قالت : لست يعادك . تركتني وحيدا وقالت : لست وحيدا . فلما سألتهـا : أتعودين ؟ اجابت : كما يعود ماء البحر الى البحر ، في الشتاء ! لقد اقبل الشتاء يا يعاد،فعودي!قالت : هذا شتاؤك وحدك .

وحدي ، مرة اخرى ، وفوق هذا الخازوق انظر الى خلق الله من فوق علوه الشاهق .

وكانوا يأتونني وحدانا .

فأتاني صديقي القديم ، يعقوب . وكان حزينا . فصحت به : الخازوق ، يا صديق العمر ! قال : كلنا نقعد عليه ! قلت ولكنني لا اراكم ! قال : ولا نحن نرى احدا . كل وخازوقه وحيد . وهذا هو خازوقنا المشترك . ومضى .

واتاني الرجل الكبير . وكان مذهولا . فصحت به : الخازوق يا عم ! قال : ما هو بخاوزق بل هوائي تلفزيون . صار الواحد منكم مثل الراكب في غواصة كلما اوغلتـم في العمق زدتـم الهوائي ارتفاعا . اقعد على هوائيك واسترح .

ومضى .

واتاني الشاب الذي يتأبط الجريـدة . وكـان شابا . فصحت به : الخازوق ، يا ولداه ! قال : الذيلا يريد ان يقعد

عليه ينزل الى الشارع معنا . لا بديل ثالث ، فاختر . ومضى في الشارع .

الا يوجد لي مكان تحت الشمس الا فوق هذا الخازوق ؟ الا يوجد لديكم خازوق اقصر ارتفاعا اقعد عليه ؟ ربع خازوق، نصف خازوق ، ثلاثة ارباع خازوق ؟

واتتني يعاد الاولى فمددت لها يدي حتى ارفعها الى فوق. فأمسكت بيدي واخذت تشدني الى قبر الغربة . فتشبثت بخازوقي .

واتتني باقية منادية ان انزل فقد بنى لك ولاء الى جانبه قصرا من صدف البحر . فتشبثت بخازوقي . واتاني سعيد ، ابن يعاد واخو يعاد ، وهو يلوح بعباءته الارجوانية وينادني : تعال يا والدي ادفئك بعباءتي!فتشبثت بخازوقي .

ورايت الشاب ، الذي يتأبط الجريدة ، وقد تأبط فأسا . ثم رأيته يهوي بفأسه على قاعدة الخازوق وهو يقول : اريد ان انقذك ! فصحت به ان كف لئلا اقع . وتشبثت بخازوقي.

وفيما أنا في هذه الحيرة من امري ، وقد تقوس ظهري ، اذا بهيئة رجل طويل القامة ، حتى ليبلغني وانا في موضعي العالي ، يقترب مني بطيئا كغيمة سارحة . فلم ار في وجهه سوى تجاعيد اشبه بصفحةالبحر حين تلفحه نسمة شرقية. فعرفته من اول وهلة . فخفق له قلبي شوقا . ولولا خوفي من الوقوع لأكببت عليه الثم خده .

صحت : سيدي شيخ الفضائيين ليس لي غيرك !
قال : اعرف ذلك .

قلت : جئت في وقتك !
قال : لا اجيئكم الا في وقتي .
قلت : انقذني يا ذا المهابة .

قال : اردت ان اقول : هذا شـأنكم . حين لا تطيقون احتمال واقعكم التعس ولا تطيقون دفع الثمن اللازم لتغييره تلتجئون الي .

الا انني ارى ان هذا الامر اصبح شأنك وحدك . قل : ان شاء الله ، واركب على ظهري ولنمض .

وفيما نحن طائران في الفضاء ، وانا محمول على ظهره اناجي ارواح اجدادي ، منذ جدي الاكبر ، ابجر بن ابجر حتى عمي الذي لقي كنز العائلة ، وادعوها ان تحضر ، فترى ، فتتباهى بأبنها الفالح ،

اذا بي اسمع ، على الارض من تحتي ، زغاريد .

فنظرت الى تحت . فرايت الشاب المتأبط الجريدة ، ومـا زال يحمل فأسه . ورايت يعاد ورأيت اخاها سعيدا . وابا محمود . واطفاله يحملون اغطيتهم على ظهورهم ويقومون . والجارات ، وكنا يزغردن . والعامل « أخت » مـن وادي الجمال يحمل مزودته ويذهب الى عمله ، ويعقوب وقد نزل عن خازوقه . وخالتي ام اسعد « المخصية » . وحتى هي كانت تزغرد .

ورأيت يعاد ترفع راسها الى السماء وتشير نحونا وتقول :

حين تمضي هذه القيمة تشرق الشمس !

- ١٢ -

الحقيقة والتاريخ

يرغب المحترم ، الذي تلقى هذه الرسائل العجيبة ، ان يبلغكم بأنها كانت ترد عليه مدموغة في بريد عكا . ولذلك ظل يبحث في عكا عن مصدرها حتى قادته قدماه الى مستشفى الامراض العقلية داخل السور على شاطىء البحر .

فرحب به المسؤولون اجمل ترحيب . وبالمناسبة طلبوا منه ان يكتب عن استيائهم الشديد من الحكومة التي تصر على ابقاء المستشفى في هذا المكان الذي كان في زمن الانتداب البريطاني سجنا رهيبا،وفيه غرفة الاعدام التي شنق الانجليز فيها عددا من محاربي منظمة « ايتسل » ، اي المنظمة العسكرية القومية . وهذه الغرفة حولت ، منذ قيام الدولة ، الى متحف مصون لصون ذكراهم . ومستشفى الامراض العقلية ، القائم في البناء نفسه ، يسيء الى كرامة هذا المزار .

ويدعي المحترم ، الذي تلقى هذه الرسائل العجيبة . بأنه ابدى دهشته ، امام المسؤولين لخلو غرفة الاعدام ، المتحف ، من اي ذكر للعرب الذين شنقهم الانجليز فيها .

فأجابوه : هذا واجب اهلهم .

قال : اين ؟
قالوا : ليبدأوا بأن يصونوا قبورهم
قال : فهل يزورونها ؟
قالوا : تلك مسألة اخرى .

حينئذ انتقل المحترم ، الذي تلقى هذه الرسائل العجيبة ، الى المسألة الاخرى ، وهي المسألة التي زار مستشفى الامراض العقلية من اجل حلها . أي معرفة من يكون سعيد ابو النحس المتشائل ، هذا .

ففتشوا في دفاتر المستشفى عن نزلائه منذ قيام الدولة . فلم يهتدوا الى هذا الاسم . فبحثوا عن اقرب الاسماء اليه فوجدوا اسما يثير الظن . وهو سعدي نحاس ، الملقب ابو الثوم . ويقال : ابو الشوم . وقالوا : ان امرأة شابة زارت المستشفى مؤخرا فسألت عنه معلنة انها من اقربائه وقادمة من بيروت عبر الجسر . فأخبروها بأنه توفي منذ حوالي العام . فقالت انه استراح واراح .

ومضت عبر الجسر .

كذلك مضى المحترم ، الذي تلقى هذه الرسائل العجيبة ، وفي قلبه رغبة في ان تساعدوه في البحث عن سعيد هذا .

ولكن ، اين ستبحثون ؟

فاذا صدقتم حكاية التجائه الى أخوته الفضائيين ورحتم تبحثون عنه في دياميس عكا القديمة فقد يصيبكم ما اصاب المحامي مع المجنون : المحامي الذي صدق مجنونا فراح يبحث

عن كنزه المطمور ، كما ادعى ، في الارض بالقرب من شجره خروب . فظل يحفر الى الشرق والى الشمال والى الغرب والى الجنوب حتى اقتلع الشجرة كلها ولم يجد كنزا . وكان المجنون ، في هذه الاثناء ، يصرف وقته بطلاء حائط في المستشفى بفرشاة يغمسها بدلو بلا قاع . فلما عاد المحامي اليه يتصبب عرقا سأله المجنون : هل اقتلعت الشجرة ؟ قال: اقتلعتهامن جذورها ولم اعثر على كنزك .

قال المجنون : اذن هات فرشاة ودلوا بلا قاع وقف الى جانبي وادهن !

ـ فكيف ستعثرون عليه ، يا سادة يا كرام ، دون ان تتعثروا به ؟!..

أسلوب جديد في بناء الفن الروائي ، الجمع بين الدروس التاريخية
والقضايا المعاصرة -- مشبعة بالانتماء الى الوطن ،
- شخصية - تاريخ - معاصرة - راو ، صعيده ، ماضيه
الماضي الحاضر المستقبل.